

التسليح في الإسلام

محمد خليفة الترنسني

المدرس
بمدرسة مصر الجديدة الثانوية

محمد أحمد حسونة بك

أستاذ التاريخ الإسلامي (سابقاً)
بكلية دارالعلوم بجامعة فؤاد

يطلب من مكتبة الخانجي بمصر
ومكتبة المثنى ببغداد

مطابع
دارالكتاب العربي بمصر
محمد حلمي المنياوي



محمد أحمد مسوننة بك

الأستاذ حسونة بك ومحاضراته

الجزء الأول من هذه الرسالة هو نص المحاضرة التي ألقاها
أستاذنا الجليل محمد أحمد حسونة بك في «نادى جمعية المعلمين»
بميدان الأوبرا في القاهرة مساء الثلاثاء ٤ مارس سنة ١٩٥٢ .
وقد ظل الأستاذ المحاضر يدرس التاريخ في المدارس الثانوية
والمعاهد العليا وكليات الجامعة في مصر قرابة أربعين عاماً ،
وكان آخر منصب تولاه أستاذية التاريخ الإسلامي بكلية «دارالعلوم» .
وما أكثر الذين انتفعوا بدراساته التاريخية القيمة ، وهذه
المحاضرة نموذج لها ولفقهه العميق بالتاريخ والإسلام معا .

ولقد حال تواضعه وحيائه الجم بين علمه والطبعة إلا ما كلفته
أن يؤلفه وزارة المعارف المصرية لتلاميذها ، ومن أجل ذلك حرم
القراء كثيراً من علمه العزيز النقي ، واقتصر على خلطائه من
تلاميذه وغيرهم .

من يقرأ هذه المحاضرة تتضح له معرفة حقيقة من حقائق
الإسلام العالية ، وقيمة من قيمه الرفيعة ، وهي « التسامح » .
ويستطيع القارئ الأريب أن يتعرف خلالها صورة « شخصية »
الأستاذ السمحة .

إن كل تلك السمات تكسب شخصيته جاذبية لطيفة تجلبها إلى
قلوب الناس ، وتفرهم بالأنس بها ، والسكينة إليها ، وتجردهم
برفق من كل عوامل التحفظ والاحتجاز أمامها . إنها شخصية

تحمّل « غصن الزيتون » للناس جميعاً ، وتتولاّم بالبر والكرامة ،
ولقد حرصت ليلة سمعت هذه المحاضرة على تعميم النفع بها ، لما
تكشف عنه من « أريحية » الإسلام ، واتساع أفاقه لكل الاختلافات ،
ولعل المسلمين — لاسيما في هذه الأيام — أحوج ما يكونون إلى هذه
المحاضرة وأمثالها نحو « الفلسفة القرآنية » لأستاذنا الجليل عباس
العقاد ، وكذلك « عبقرياته » وما نحا نحوها من كتبه القيمة التي
تعتبر فتحاً في الإسلام وفتحاً في التاريخ وفن التراجم (biographies)
معاً . نحن أحوج مانكون إلى هذه الكتب الآن لنشاط الإنجليز
واليهود والشيوعيين ومن إليهم من أصحاب الأزياء الفكرية الجديدة
في الغرب والشرق — نشاطهم لإشاعة الفتنة .

لذلك طلبت من الأستاذ حسونة بك — متشفعاً إليه بأستاذي
الفاضل محمد مبروك نافع بك أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية
« دار العلوم » — كي يأذن لي بطبعها ونشرها ، ففضل بذلك ،
فلهما الشكر على ما أولياني والقراء من خير ، وأرجو الله أن
ينفع بها ويكثر مثيلاتها حتى يعرف الإسلام الصحيح على حقيقته .
واقدمت إلى محاضرة الأستاذ بختالي في « الأسس النفسية
والاجتماعية للتسامح في الإسلام » له اتجاهها وهدفها وقد تفضل
أستاذي حين علم بطبعهما معاً فطلب أن يكتب اسمي مع اسمه ، وإن
لم يطلع على بحثي الذي أحمل وحدى مسؤوليته ، وأرجو أن تشفع لي
غيرتي على الإسلام ما تخلل بحثي من فورة والله الموفق للسداد .

كوبرى القبة في ١٥/٣/١٩٥٢ محمد خليفة التونسي

التسامح في الإسلام

١ - التسامح بين الشعوب :

ذكر أستاذنا العلامة الدكتور أحمد بدوي بك في المحاضرة الفذة التي ألقاها من هذا المنبر أن آباءنا القدماء كانوا يعتقدون أنهم هم وخدمهم « الناس » ، وأنه لا يستحق هذه التسمية شعب سواهم ، كذلك كان الإغريق القدماء يعدون أنفسهم « الناس » ويعدون كل من عداهم هجياً متبرراً . وجاء الرومان من بعدهم على غرارهم فاعتبروا كل من كان خارج حدود دولتهم خارجاً عن نطاق الحضارة كذلك ، وكان الأمر في الشرق قريباً من هذا : فالفرس كانوا يرون أنفسهم شعباً ممتازاً . فإذا جئنا إلى العرب وجدنا هذه النعرة بالغة شأوها ، وإليك شاهداً منهم هو زيد ابن عدي نسمة قبيل يوم « ذي قار » يقول لكسرى الثاني المعروف بكسرى أبرويز : « إن شئت في العرب أنهم يتكلمون عن المعجم^(١) » أي يعتبرون أنفسهم أشرف من كل شعب آخر . وهذا الشعور عند العرب شائع في أدهم بحيث لا يحتاج إلى مزيد

(١) أيام العرب تألف جاد المولى بك وشركائه - ص ١٩ والعرب يعدون كل من لا يتكلم لغتهم أمجياً .

من الإيضاح . وهذا التعصب الجنسى بلغ فى سالف العصور مبلغاً لا يطاق : كان بعض نتائجها ما نراه بين القرس والروم إذ بقيت الحرب بينهما سجالاً ما يقرب من أربعة قرون (٢٦٠ - ٦٢٨ م) يتأجج لظاها أحياناً ما يناهز ربع قرن ، حتى يضطر أضعف الجانبين إلى الخضوع المؤقت ، فيعقد الصلح بينهما وقد انعقدت نية الغالب والمغلوب على تضميد جراحه ، والاستعداد بأقصى سرعة ويمتدح الطاقة لحرب أخرى تنهى بالقضاء على خصمه ، وتضمن له السيادة العالمية التى يزعم أنه جدير بها .

وتعود الحرب فتتقد نارها عشرين سنة ، ولا تهدأ خمس عشرة سنة حتى يستقر عزم كسرى الثانى على ضم دولة الروم كلها باعتبار أنها جزء من أملاكه استولى عليها عبد آبق من عبيده سمي نفسه الامبراطور هرقل .

وينتزع كسرى من يد الروم الشام ومصر والأناضول ، ويقف أحد جيوشه على ضفاف البسفور الآسيوية يرى القسطنطينية رأى العين ، ويفزع هرقل ويرسل كنوزه فى سفينة تتجه صوب ليبيا القى وثب منها إلى العرش ويأخذ أهفته للحاق بكنوزه . ولا يثنيه عن ذلك الفرار إلا بقية من الغيرة على المسيحية تزعمها البطريق ، فأجبر الإمبراطور على أن يقسم على البقاء فى العاصمة ومدافعة عبدة النار عنها .

وينهض هرقل فيجارب الفرس ست سنين (٦٢٢ - ٦٢٨)
ويسترد صليب الصليبوت من فارس ويحتفل بإعلاء الصليب في بيت
المقدس سنة ٦٢٩ م وهي تقابل سنة ٤٧ التي فتحت فيها خير .

وهذه الحروب الملاحقة التي نشأت عن التعصب الجنسي
تؤتى ثمرتها المرة فيتآمر ابن هرقل على عزله ، ويساعده شيرويه بن
كسرى أبرويز في عزل أبيه وقتله ثم يجلس على عرشه .
وتشيع الفتن والدسائس في البلاطين الفارسي والرومي
وتكثر الانقلابات الحزبية وتفوق الاضطرابات كل ما يتصوره
العقل .

أفما آن لهذا التعصب القومي أن ينزاح عن الناس بولاياته
وكوارثه ؟ بلى ؛ قد جاء الإسلام فرماه بنص من نصوص دستوره
« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً
وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . يريد جل ثناؤه
أن يفهم عباده أن اختلاف الشعوب يراد منه التعارف والتعاون
وتبادل المنافع بحيث يفيد كل شعب بما عند جيرانه من خيرات
مادية ناشئة عن بيئتهم الخاصة ، كما يفيد من مواهبهم التي ساعدت
بيئتهم على تكويتها . ويريد سبحانه أن يفهم عباده أنهم أخطئوا
إذ جعلوا هذا التباين بين الشعوب سبباً في العداوة والبغضاء .

ونجى ، المذكرة التفسيرية لهذا النص على لسان رسول الإسلام

« الناس سواسية كأَسنانِ نَشط : لأفضلِ أعرابيٍّ على عجميٍّ ؛ إنما
الفضلُ بالتقوى »

ويأتي التطبيق مؤيداً لهذه النصوص فترى أناساً من غير
العرب ينزلون من محمد وأصحابه منزلة كريمة فبالك الحيشي
وعبدالرحمن بن عوف القرشي يقفان في مستوى واحد وهما يناقشان
عمر حين يتحدث الخلاف على أرض السواد : هل تقسم بين
الفاحين أم تبقى بيد أصحابها ؟ ويشتم بلال في طلب تقسيمها فلا
يسكته عمر ولا أحد من العرب ، ولا يجد عمر حيلة في إقناعه
فيفزع إلى الله أن يلهم بلالا الصواب ، يقول : « اللهم اكفني
بلالا » . وهذا سلمان الفارسي يؤخذ برأيه في حفر الخندق حول
المدينة ويظهر محمد وأصحاب محمد تقديرهم لفضله ؛ وهذا صهيب
الرومي يوصي عمر بإسناد إمامة الصلاة إليه أثناء انعقاد مجلس
الشورى .

هذا عن التعصب القومي وما جاء للقضاء عليه من التسامح
في الإسلام .

٢ - التسامح بين القبائل :

وأنقل بعد ذلك إلى صنف آخر من التعصب هو التعصب
القبلي الذي شاع ذكره باسم العصبية القبلية :
وتبياناً لذلك أكرر ما نعرفونه جميعاً من أن دول اليمن

بأسمائها المختلفة وحضارتها العظيمة قد انتهت باستيلاء الحبشة على اليمن سنة ٥٢٥ م وبقاء تلك البلاد خاضعة لحكم الأجنبي خمسين عاماً ثم دخولها بعد ذلك في حكم أجنبي آخر هو حكم الفرس حتى إذا قهرهم هرقل سنة ٦٢٨ م ٦ هـ . وهي سنة صلح الحديدية ضعف نفوذ فارس في اليمن وعمان والأحساء وغيرها من تلك الأقاليم العربية .

وكانت حروب الفرس والروم قد بددت شمل المناذرة والغساسنة فأصبح العرب من تدمر شمالاً إلى عدن جنوباً ومن الحيرة شرقاً إلى أيلة غرباً — أصبحوا جميعاً قبائل متفرقة لا تجمعهم حكومة عربية ولا غير عربية ومن ثم اضطرت كل قبيلة أن تعول في الدفاع عن نفسها على أبنائها وحدهم ، فإذا عضها القحط أغارت على جيرانها تسلب أموالهم وتسبي ذراريهم ، وشاعت عادة القتال بين هذه القبائل حتى كاد حب القتال يكون غريزة لا مناص من الاستجابة إليها .

فإذا ثارت هذه الغريزة في إحدى القبائل اندفعت إلى مقاتلة قبيلة بعيدة عنها في النسب . فإذا لم تجد قبيلة بعيدة النسب هاجمت أقرب القبائل إليها ولو كانت تربطها بهارحم وشيخة . وبانحطاط النزاع القبلي إلى هذا الدرك من التناحر انعدمت فكرة العدل بين القبائل . وأي عدل هذا الذي يستقيم بين جماعات أولى مميزات القتل والنهب والسبي ؟ .

ولحماية المجتمع من شرور هذه الفوضى تبرأ رسول الإسلام من التعصب القبلي وسماه عملاً جاهلياً بمعنى أنه لا يليق إلا بقوم من الهمج الأغبياء . فقال « ليس مِنَّا من دعا بدعوى الجاهلية »^(١) وهي الاستغاثة بالقبيلة : كانوا يقولون : يا آل فلان يا آل فلان ، فيجتمعون وينصرون المستغيث ولو كان ظالماً . وقاعدتهم في ذلك : « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » .

فلما كانت غزوة « المريسيع » سنة ٦ هجرية ضرب رجل من المهاجرين أنصارياً ، فغضب الأنصاري غضباً شديداً وقال : يا لأنصار ، وقال المهاجري : يا للمهاجرين . خُرج النبي (ص) فقال : « فما بال دعوى الجاهلية ؟ دعوها فإنها خبيثة »^(٢) .

وامتنَّ الله على المؤمنين بمحو هذا العدا من نفوسهم فقال : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً »^(٣) .

وقال جل ثناؤه : « وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم »^(٤) .

(١) البخاري في باب ما ينهى عن دعوى الجاهلية ص ٢٠ - ٢١ الجزء الخامس من الطبعة المنيرية .

(٢) البخاري - الخامس ص ٢١

(٣) سورة آل عمران آية ١٠٣ (٤) سورة الأنفال آية ٦٣

٣ — الفاسح بين الطبقات :

الأصل في الاسترقاق الانتصار في الحرب ، إذ كان المنتصر في أقدم العصور يستولى على شخص المغلوب وزوجته وأولاده وكل ما يملك .

وكان المنتصر — أول الأمر — يتخلص من عدوه بقتله ، ثم جعل يستبقيه لخدمته . وكان آباؤنا الفراعنة يستخدمون الأرقاء في الزراعة وما إليها ، كما كانوا يتخذونهم للخدمة والمظاهر ، وكان للسيد — أول الأمر — الحق في قتل عبده ، ثم ارتقت الحضارة المصرية حتى نصت القوانين على تحريم قتل الرقيق . وبلغ من ذلك أن كان السيد يقتل إذا قتل عبده .

وكان البراهمة في الهند يدينون بأن طائفة معينة من الناس — يسمونهم السودرا — لا يصلحون إلا للرق . وكان القانون البرهمي يقضى بقتل « السودرا » لأقل هفوة . وكان الفرس يستكثرون من الرقيق . وكان قانونهم يبيح للسيد قتل عبده .

وبالغ اليونانيون في احتقار الأرقاء . وأقرهم على ذلك الفلاسفة . فزى أرسطو — وهو أكبر عقلاء الأقدمين — يقول في كتاب « السياسة » : —

« الطبيعة خلقت بعض الكائنات للامارة وبعضها للطاعة .

فحقى كان المرء أخط من أمثاله - كما تكون البهيمة إلى الإنسان -
كان هو الرقيق بالطبع .

ومنفعة الحيوانات المستأنسة ومنفعة العبيد كأنها شيء
واحد تقريباً .

ومهما يكن من شيء فيبين أن البعض هم بالطبع أحرار ،
والآخرين عبيد . وأن الرق في حق هؤلاء نافع بمقدار ما هو
عادل . وعلى ذلك فسلطة السيد على العبد عادلة ونافعة (١) .

وكان السيد اليونانى يعاقب عبده بالسكى بالنار على جهته ،
ويكلفه إدارة الطواحين بدلاً من البهائم . وإذا تصادف أن
أعتق سيد عبده فإن المعتق يقضى بقية حياته بمثابة الحيوان
محروماً من كل حق مدنى ، بل كان عليه أن يقوم بواجبات معينة
نحو سيده السابق .

فإذا انتقلنا إلى الرومان وجدنا قانونهم ينص على أن الرق
نظام من نظم قانون الشعوب بمقتضاه قد يخضع شخص للملكية
آخر . وتيسيراً لفهم كثرة الرقيق عند الرومان أستمحكم عذراً
في عرض التشبيه الآتى :

أشبه الرق بحوض تصب فيه حنفيات كثيرة أقتصر على
إحدى عشرة حنفية منها :

(١) كتاب السياسة لأرسطو ترجمة لطفى السيد باشا ص ٩٣ وما يليها .

- ١ — أولاد المرأة الرقيقة .
 - ٢ — أسرى الحرب .
 - ٣ — رعايا الدول الذين ليس بين دولهم وبين روما معاهدة وهؤلاء يحق لأى روماني أن يسترقتهم .
 - ٤ — الروماني الذي يعتدى على دولة أجنبية موالية لروما .
 - ٥ — كل من حكم عليه بالإعدام أو الأشغال الشاقة أو منازلة الأسود يعتبر رقيقاً بقصد حرمان ورثته من التركة .
 - ٦ — الحر الذي يبيع نفسه رقيقاً نظير ثمن معين .
 - ٧ — العبد الحديث الولادة إذا تخلى عنه سيده ، فهذا يجوز لمن شاء أن يستولى عليه ويسترقه .
 - ٨ — يباع رقيقاً خارج روما الهارب من الجندية .
 - ٩ — « » « » « » الأولاد الذين يريد أبوهم بيعهم .
 - ١٠ — « » « » « » المعسر الذي يريد دائته بيعه .
 - ١١ — « » « » « » السارق الذي يضبطه المسروق منه متلبساً بالجريمة .
- وكان للسيد في أكثر عصور التاريخ الروماني أن يعدم عبده .
وكان المعتق — وهو نادر — محرم من مناصب الدولة ومن الخدمة في الجيش .
- فإذا نظرنا إلى العرب قبل الإسلام وجدناهم يعدون العبد

شيئاً ضمن أملاك الأسرة يتصرف فيه رئيسها تصرفاً مطلقاً غير مقيد بقانون ولا بعرف .

وجاء الإسلام والحياة ما تزال مؤسسة على الرق في ناحتها الاقتصادية والاجتماعية بحيث أن أية محاولة للقضاء على الرق بجرة قلم كانت تؤدي حتماً إلى انهيار المجتمع . ومن ثم لم يكن مشروع حكيم ليقدم على إلغاء الرق ، لأن عملاً كهذا يقضى على مشروعاته الإصلاحية في مهدها .

ولهذا السبب تناول الإسلام الرق بأسلوب لا يزعج العرب ولكنه يؤدي إلى إلغاء الرق أو حصره في أضيق نطاق : ذلك أنه عمد إلى الحنفيات التي تصب في محوض الرق — وقد رأينا منها إحدى عشرة — فسد فوهاتها جميعاً اللهم إلا حنفيتين اثنتين هما الولادة والأسر .

ولم يكف بذلك ، بل جعل يضيق فوهة كل من هاتين الحنفيتين . فأما الولادة فسدَّ منها الجزء الخاص بأولاد الرقيقة من سيدها وهؤلاء هم كثرة الرقيق من الولادة . فمثل عنزة العيسى لو ولد في الإسلام لكان حراً من لحظة ولادته بدلا من أن يبقى عبداً حتى يضطر والده إلى عتقه عند ما احتاج إليه في الدفاع عن قبيلته .

وأما حنفية الأسر فسد منها الجزء الخاص بأسرى الحرب التي تقع بين جماعتين من المسلمين وأعطى رئيس الدولة الإسلامية

حق سد الجزء الباقي وهو الخاص بأسرى الكفار الذين تحت يده ، فله أن يطلق سراحهم بفداء أو بغير فداء . ومن الجدير بالملاحظة أن القرآن الكريم بدأ بالمنّ وهو تحرير الأسير دون مقابل ، وثمّى بتحريره نظير فداء ، وأبى أن يذكر الاسترقاق . قال سبحانه : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا آخضتكم فيهم فشدوا الوثاق ، فإما مننّا بعد وإما فداء (١) » .

وحدث القرآن حدثاً شديداً على تحرير الرقاب وهو العتق ، وبخاصة في حال الحنث في اليمين والافطار عمداً في رمضان . بل إن المسلمين كثيراً ما كانوا يشترون الأرقاء بقصد واحد هو تحريرهم كما فعل أبو بكر إذ اشترى كثيرين وأعتقهم ، وأشهر هؤلاء بلال مؤذن رسول الله .

ومتى تحرر الرقيق أصبح مساوياً لمن ولدوا أحراراً إلى حد أنه أبيض له أن يتعاقد عن الدولة الإسلامية بأسرها بكلمة يقولها بغير إذن منهم . قال علي بن أبي طالب : « ذمة المسلمين واحدة يسمى بها أديانهم » — يريد العبد . وكثيراً ما حدث ذلك في الفتوح الإسلامية الأولى .

وتحدث عمر عن بلال فقال : « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » . وقال النبي (ص) لزيد بن حارثة : « أنت أخونا

ومولانا) « وقد حرم الإسلام على السيد قتل عبده ، بل إن السيد إذا مثل بعبده كأن قطع جزءاً من أذنه أو أنفه صار العبد حراً بمجرد وقوع هذا العمل . ويقول أصحاب هذا الرأي : « إنه حر لله ورسوله » ويقول الآخرون : إن العبد الذي مثل به يشكو للقاضى فيحرره متى ثبتت المثلة . ويستوى في ذلك العبد المسلم والعبد الذمى (١) .

ولا أود إيراد أكثر من ذلك عن الأبواب التي فتحتها الإسلام للتحرر بأن جعلها بالوعات تسكاد تستنفد ماء حوض الرق لأنها أبواب تفوق الحصر .

٢ - التسامح بين الأديان :

غنى عن البيان ما قاساه المسيحيون في العالم القديم من صنوف الاضطهاد ، فإن ما أنزله الوثنيون بهم من التعذيب المختلف الألوان قد سارت به الأمثال . ومن ذلك أن الإمبراطور الرومانى فليريان « Velerian » أصدر في سنة ٢٥٨ م قانوناً بأن كل من يعتنق المسيحية من أعضاء مجلس الشيوخ وكبار الموظفين يفصل من وظيفته وتصادر أملاكه . فإذا أصر بعد ذلك على البقاء على المسيحية حكم عليه بالإعدام .

(١) الذمى كل من كان رعية الدولة الإسلامية من غير المسلمين ويسمى أيضاً معاهداً ، وأهل الذمة هم الداخلون في ذمة المسلمين ورعايتهم .

وإذا كان هذا شأن عظماء الدولة فما بالك بالعامّة ؟ لقد كان من أنواع التنكيل بهم أن يرموا إلى الأسود الضارية بعد أن يشتد بها الجوع . هذا عن الوثنيين . وكان المنطق يقضى بأنه متى صارت المسيحية ديناً مسموحاً به أيام قسطنطين الأكبر بطل هذا الاضطهاد . لكن شيئاً من ذلك لم يحدث فإنه لم يكده حكم قسطنطين ينتهى ، ويعتلى عرش الإمبراطورية خلفه قسطنطيوس الثانى Constantius II (٣٣٧ - ٣٦١) حتى شرع المسيحي يضطهد المسيحي .

وبحسب أمثلة مما ذاقه آباؤنا وأمهاتنا الذين جرت العادة بتسميتهم قبطاً أخذاً من كلمة « أگوبتوس ^(١) Aigoptos » وهى باليونانية مصر . أجل أگوبتوس هى مصر وطننا المقدى ، حذف أوله وآخره واقتصر فيه على كوبت ومعناها مصرى . وهذا أساس هذا الاشتقاق .

وقد درجت منذ توليت التدريس من ٣٥ سنة مضت على تعليم تلاميذى أننا معشر المصريين جميعاً قبط : منا قبط مسلمون ومنا قبط مسيحيون . وزاد إصرارى على ذلك طوال المدة التى قضيتها فى التدريس بكلية دار العلوم . وقد أتلج صدرى أننى وجدت لهذا القول وقعاً حسناً عند طلاب هذه الكلية بنوع خاص .

(١) الكاف ذات الشرطين فى الفارسية ينطق بها كالجم فى لهجة أهل القاهرة ، ولهذا فضتها هنا .

وبعد هذا الاستطراد أعود لنا حل بآبائنا وأمهاتنا من
اضطهاد ديني ، فأقول : « إن هذا الاضطهاد بدأ في الإسكندرية
سنة ٢٠٢ وبدأ معه إهراق دم الشهداء ، وهدأ فترة ليعود أيام
الإمبراطور فليب العربي (٢٤٤ — ٢٤٩) فكان الوثنيون
من أهل الإسكندرية يطاردون المسيحيين في شوارع المدينة
ويقتلون عدداً منهم ، وجاء اضطهاد جديد سنة ٢٥٠ كان من
مظاهره النفي والسيف والنار لا ترحم شيخاً ولا طفلاً ولا امرأة
ولا جندياً ، ومنهم من كان يذبح قرباناً لآلهة الوثنية (١) » .

وما تقبل سنة ٣٠٤ حتى يقاسى آباؤنا وأمهاتنا أعظم اضطهاد .
إذ كان دقلديانوس يرسلهم إلى المهاجر في الصحراء الشرقية وينفي
بعضهم إلى فلسطين وقبرص وكيلىكيا ويُرْمى آخرون للوحوش
الضارية في حلقة الألعاب (٢) ليكون ذلك متعة للحاضرين
من الوثنيين .

فهل من عجب إذا سمي عهد هؤلاء الابطال الذين لم يباليوا
بأن يراق على رؤوسهم الزيت المغلي والقطران المغلي ، ولم يأبهوا

(١) ص ٨ ، ٩ من الجزء الثاني من كتاب
Précis de L'histoire d'Egypte ومؤلف هذا القسم هو
الأستاذ هنري مونيه Henri Munier .

(٢) المصدر السابق .

يربطهم بالعجلات ولا بالقائمهم للحيوانات المفترسة — هل من عجب أن يسمى عهد هؤلاء « عهد الشهداء » ؟ وهل من عجب إذا رأى المصريون من أهل ذلك الزمان أن بطولة هؤلاء الشهداء تستحق أن تكون مبدأ لتقويم مصرى خاص هو تقويم الشهداء ؟ وأن يبدأوا هذا التقويم من أول حكم دقلديانوس سنة ٢٨٤ م ؟

وهل من عجب أن يكون ذلك التقويم القبطى — أى المصرى — عماد زراعتنا إلى يومنا هذا ، لا يعرف فلاحنا تقويماً سواه لمواسم الزرع والحصاد .

وبعد هذا أكتفى بشذرات من كتاب الأستاذ الدكتور بَتلر — فتح العرب لمصر — معتمداً على الترجمة الرصينة التي دبرتها راعة كاتبنا القدير الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك :

١ — لم يكن في بلاد الدولة الرومانية ما هو أشقى من مصر ، فقد سعى جستنيان جهده ليجبر القبط الذين ليسوا على مذهب الدولة فيدخلهم في ذلك المذهب ، واشتد الكفاح أيام جستين الثانى (٥٦٥ — ٥٧٨) فلم يكن عجباً أن يسمع صليل السلاح بين حين وحين في مدينة الإسكندرية نفسها (١) .

٢ — وماذا عسانا نذكر عن عسف الاضطهاد ، وعن

(١) ص ٣ نقلا عن حنا مسكوس Pratum spirituale

المدائح وما سال فيها من السماء ، وتشجيع الحكام لذلك حتى
جستيان نفسه (١) .

٣ — ونجد إجماعاً من المؤرخين (وفيهم ساويرس الأشمونيني)
على أنه ما ولى إمبراطور إلسار على سنة القضاء على مذهب
اليعاقبة في مصر قضاء لاهوادة فيه ولا رحمة (٢) .

٤ — فتح الفرس بيت المقدس بمساعدة اليهود وقتلوا
٥٧٠٠٠ من المسيحيين وأسروا ٣٥٠٠٠ (٣) بينهم آلاف كثيرة
من الرهبان والقديسين والراهبات ، وأخذ الصليب المقدس ،
وشيء لا حصر له من الآنية المقدسة من الذهب والفضة . واشترى
اليهود كثيراً من الأسرى ليعتقوا أنفسهم بتقتيلهم (٤) . وكان ذلك
سنة ٦١٥ أى قبل الهجرة بسبع سنين حين كان المسلمون في مكة
يلقون أشد العنت من كفار قريش .

٥ — كان الفرس سنة ٦١٧ يوقعون بما حول الإسكندرية
من الريف ولا سيما الأديرة . وكانت الأديرة نحو ٦٠٠ قتل الفرس
من فيها من الرجال لم يكذب يفلت منهم أحد . وهدمت الكنائس
والأبنية وأحرقت (٥) .

(١) ص ٢٨

(٢) ص ٤٢ ، ٤٣

(٣) ص ٥٤ . نقلا عن Sebeos وغيره .

(٤) نقلا عن Cedrenus .

(٥) ص ٦٦ نقلا عن ساويرس الأشمونيني .

٦ - لما انتصر هرقل واحتفل بإملاء الصليب في ١٤ سبتمبر سنة ٦٢٩ أخذ منه اليهود أماناً مكتوباً^(١) ، لكنه رغم ذلك أمر أن يجلى اليهود عن بيت المقدس وعن كل ما يقع على بعد ثلاثة أميال من أسوار تلك المدينة^(٢) ووقعت مقالة تشبه أن تكون عامة . ويقول المقرئى : إن اليهود قتلوا حتى لم يبق منهم أحد في دولة الروم ومصر والشام إلا من هرب أو اختفى ، ونجد تلك القصة في كتاب سعيد بن البطريق^(٣)

٧ - ما هو إلا أن قدم قيرس الإسكندرية سنة ٦٣١ حتى هرب البطريق القبطى . وقد جمع بنيامين جمعاً من القسوس والرعية ، وألقى فيهم خطاباً يحضهم على أن يثبتوا على عقيدتهم حتى يوافقهم الموت^(٤) .

وكان قيرس بطريقاً ملكانياً وحاكماً على مصر مطلق التصرف في حربها وخراجها . وبعد قدومه بشهر أو شهرين^(٥) بدأ الاضطهاد الأعظم ، ولنضرب لذلك مثلاً بميناس وهو أخو البطريق بنيامين فقد أوقدت المشاعل وسلطت نارها على جسمه ، فأخذ

(١) ص ١١٦ .

(٢) ص ١١٩ .

(٣) ص ١١٩ هـ (١) .

(٤) ص ١٥٦ [قيرس يسمى في كتب التاريخ العربية : المقوقس - التونسى]

(٥) ص ١٦٣ .

يحترق حتى ساء دهنه من جانبه إلى الأرس (١) ، ولكنه لم يتزعزع إيمانه ، خلعت أسنانه ، ثم وضع في كيس مملوء بالرمل فرموا به في البحر بعيداً عن الساحل ، ثم عرضوا عليه الحياة إذا هو آمن بما أقر به مجلس خلقيدونية . فعلوا ذلك ثلاثاً ، وهو يرفض في كل مرة ، فرموا به في البحر فمات غرقاً .

٨ — كان آخر يوم للروم في حصن بابليون هو يوم الفصح — عيد القيامة سنة ٦٤١ ، ولكن كبار الروم لم يتعظوا بما كان ، ولم ترق قلوبهم لما نزل بهم من ذهاب أمر المسيحية في مصر ، ولم تقع في نفوسهم حرمة ليوم عيد الفصح الذي خرجوا فيه ، فبقيت في صدورهم العداوة والشحناء المذهبية لم يذهب منها شيء . وكانوا قد سجنوا منذ أول الحصار كثيراً من القبط الذين كانوا بالحصن . . . فسحبوهم وضربوهم بالسياط وقطع الجند أيديهم ، أمرهم بذلك كبيرهم فلا عجب أن يسميهم الأسقف المصري حنا النقيوسى : أعداء المسيح الذين فتنوا الناس عن دينهم فتنة شديدة لم يأت بمثلها عبدة الأوثان ولا الهمج (٢) .
فإذا انتقلنا إلى جزيرة العرب فهناك يوسف ذو نواس باليمن ، وقد تهود وتهود معه كثير من الشعب فعمد إلى نصارى نجران

(١) ص ١٦٣ نقلا عن ساويرس .

(٢) ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ نقلا عن حنا النقيوسى ص ٥٦٧ .

فانقض عليهم سنة ٥٢٣^(١) بجيش عظيم واستولى على المدينة عنوة ،
وخير من بقي من أهلها حياً بين اليهود وقتل . فما اختاروا
الموت حفر لهم خندقاً وضرب أعناق أناس منهم وحرق أناساً
وألقى بالجميع في الخندق ، وعن ذلك يتحدث القرآن الكريم
في سورة البروج : « قتل أصحاب الأخيود^(٢) ، النار ذات الوقود
إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا
منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » والمؤمنون هنا هم المسجونون
ولا شك ، وقد أورد ذلك البيضاوي مع روايتين أخريين .

هذا طرف بسير مما كان عليه الاضطهاد الديني ، وهو التعصب
الديني الذي ضج منه الناس في سائر الأقطار ورفعوا أبصارهم إلى
الرحيم الرحمن أن يرفع عنهم هذا البلاء فنزل قوله تعالى :
« لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي »^(٣) .

وقال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين
ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله
يحب المقسطين »^(٤) .

وكتب رسول الله (ص) إلى عامله على اليمن : « من كان على
يهوديته أو نصرانيتها فلا يفتن عنها »

(١) أي قبل مولد الرسول بنحو ٤٨ سنة .

(٢) أي اليهود .

(٣) سورة البقرة آية ٢٥٦

(٤) سورة المتحنة آية ٨

وقال (ص) : « من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه يوم القيامة » أى غالبه بالحجة : وقال عمر : « أوصى الخليفة من بعدى بأهل الذمة خيراً : أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ، وألا يكلفوا فوق طاقتهم » (١) .

وأى عمر بن الخطاب بماك كثير من الجزية فقال : « إني لأظنكم قد أهلكم الناس ! » ، قالوا : « لا ، والله ، ما أخذنا إلا عفواً صفواً (٢) » . قال : « بلاسوط ولانوط (٣) ؟ » قالوا : « نعم . » قال : « الحمد لله الذى لم يجعل ذلك على يدى ولا فى سلطانى » (٤) .

وبلغ من تسامح الإسلام مع الأديان الأخرى أنه آمن بجميع الرسل من آدم إلى عيسى عليهم السلام ، حتى أن كتب التوحيد تقول إنه يجب على المسلم — أو فى الأقل يحسن به — أن يؤمن بالرسل جميعاً ، وأن يعرف أسماء خمسة وعشرين منهم ، ومن بين هؤلاء موسى وعيسى حتماً .

واختلف مسلم ويهودى فى التفضيل بين محمد وموسى ، فلما علم النبي بذلك قال : « لا تفضلونى على الأنبياء » .

(١) كتاب الأموال ص ٤٣

(٢) العفو : الزائد عن حاجة الذمى ، والصفو ما أعطاه برضا نفسه .

(٣) أى بلا ضرب ولا تعليق بحبل .

(٤) القصة واردة فى كتاب الأموال لأبى عبيد بن سلام ص ٤٣

وينقل البلاذري عن أبي يوسف : « إذا كان في البلاد سنة
أعجمية قديمة لم يغيرها الإسلام ولم يبطلها ، فشكا قوم إلى الإمام
لما ينالهم من مضرتها ، فليس له أن يغيرها » .

ويقول أبو عبيد بن سلام^(١) : كل ما كان من سنة أهل السنة
وبيعهم وكنائسهم وغير ذلك مما وقع عليه الصلح ، فليس لأحد
أن ينقضه » .

ومن ذلك أنه بينما عمر يسير في الشام إذ لقيه القلمسون^(٢)
من أهل اذرعات^(٣) بالسيوف والريحان ، فقال عمر : « مه ، ردوهم
وامنعوهم » . فقال أبو عبيدة بن الجراح أمين الأمة « يا أمير
المؤمنين ، هذه سنة العجم وإنك إن تمنعهم يروا أن في نفسك نقضاً
لعهدهم » فقال عمر : « دعوهم ، عمر وآل عمر في طاعة
أبي عبيدة » .

ويعلق أبو عبيد على ذلك بقوله : أنكرها (يقصد لعبة
المقلسين) عمر وكرهاها ، ثم أقرها لأنها كانت لهم قبل الصلح .
ومر عمر بن الخطاب بباب قوم وعليه سائل يسأل ، شيخ
كبير ضرب البصر . فضرب عضده من خلفه وقال : « من أي
أهل الكتاب أنت ؟ » قال « يهودي » . قال : « فما الجأك إلى

(١) كتاب الأموال ص ١٥٢

(٢) قوم يلبسون بالسيوف والريحان أمام العطاء بقصد الاحتفال بهم .

(٣) موضعها الآن البثنية بالمملكة العربية الهاشمية .

ما أرى؟ » قال : « أسأل الجزية والحاجة والسن . . . »
فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فرضخ له بشيء من المال
ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال : « انظر هذا وضرباه
فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ، إنما
الصدقات للفقراء والمساكين ؛ والفقراء هم المسلمون ، وهذا من
المساكين من أهل الكتاب . » ووضع الجزية عنه وعن ضربائه
وأجرى عليه من بيت المال ما يصلحه . واقتداء بعمر كان حفيده
عمر بن عبدالعزيز ينفق على الفقير من أهل الذمة إذا كبرت سنه .
ولنلخص بعض مظاهر التسامح الإسلامى :

١ - فى الأقطاع :

قال الفقهاء : إن أخذ أرض من واحد وإقطاعها لآخر
اغتصاب يحرم على الإمام فعله ، سواء كانت الأرض المأخوذة لمسلم
أو لمعاهد . واستدلوا على ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم :
« من أخذ شبراً من أرض بغير حق طوقه يوم القيامة من
سبع أرضين » .

٢ - فى العشور وهى ما سميته الجمارك :

الذمى (١) أسوة المسلم فى عشور التجارة فى أنهما يلزم أن
يؤخذ منهما قدر زكاة التجارة بالنص الشرعى . وهذا القول يستند
إلى ما جرى عليه العمل فى صدر خلافة عمر .

(١) انظر هامش ص ١٨

٣ - العاشر : وهو عامل الجمر ك لايفتش مسماً ولا دميأ
ولكن يقبل قول كل منهما قال زيد بن حدير : « أول من
بعث عمر بن الخطاب على العشور أنا ، فأمرني ألا أفتش أحداً » .

٤ - كان عمر بن عبد العزيز يعنى مقاتلة اللوالى من أهل
خراسان من الجزية ، ويسوى بينهم وبين العرب فى العطاء .

٥ - مرت مكانة أعجمية تجارة عظيمة على العائس فلما علم
حالمها قال : « ليس على مان مملوك زكاة » . وخلقى سبيها .

٦ - يجب على المسلمين فداء أسرى أهل الذمة سواء كانوا
فى معوتهم أم لم يكونوا .

٧ - فى القتل الخطأ : دية الدمى دية المسلم .

وانتقل إلى مظاهر التسامح فى بلدنا :

ينقل بتلر عن ساورس الأشمونينى فى حديثه عن الأديرة الستائة
التي كانت حول الإسكندرية والتي خربها الفرس (١) :

« قد أعيدت هذه الأديرة بعد الفتح العربى ، وقد احتفل بها

بقيامين نفسه بافتتاح كنيسة القديس مكاريوس احتفالا عظيماً »

وبعد ذلك بنحو ١٥٠ سنة استفق حاكم مصر الإمام الليث بن سعد

وغيره من علماء العصر فى تعمیر الكنائس . فقال الليث وبقية

العلماء : « إن تعمیر الكنائس من عمارة البلاد » . واحتجوا بأن

الكنائس الكبرى بذيت أيام الصحابة والتابعين . ولا مرية فى أن

(١) [أنظر ص ٢٢ هنا - الفقرة ٥ - التوسى ٠]

الأديرة والكنائس التي عمرها بنيامين كانت في ذهنهم إبان هذه الفتوى (١).

وطيب الله ثرى شوقى فطالما نادى بهذا المبدأ الكريم — مبدأ التسامح — ولولا خشية الإطالة لتغنيت بكثير من شعره في هذا الموضوع الجميل ، ولكنى أقصر فأورد قوله :

أعهدتنا واقبط إلا أمة للأرض واحدة تروم مراما ؟
نعلى تعاليم المسيح لأجلهم (٢) ويوقرون لأجلنا الإسلاما
الدين للديان جل جلاله لو شاء ربك وحد الأقواما
هذى قبوركم وتلك قبورنا متجاورين جماجماً وعظاما
فبحرمة الموتى وواجب حقهم عيشوا كما يقضى الجوار كراما
وأختم بقوله :

إنما نحن : مسلمين وقبطا أمة وحدت على الأجيال
وإلى الله من مشى بصليب فى يديه ، ومن مشى بهلال

محمد أحمد حسونة

(١) الليث بن سعد توفى سنة ١٧٥ هـ ، ٧٩١ م ويقول الإمام الشافعى إنه كان أوفقه من مالك . ومسجد الإمام الليث إلى الجنوب قليلا من مسجد الإمام الشافعى بالقرافة الصغرى . [إمرفه العامة فى مصر بالإمام الليثى — التونسى]
(٢) المعروف أن المسلمين ملزمون بإعلاء تعاليم المسيح بحكم الإسلام أولا سواء أكانوا مواطنين مع مسيحيين أم لم يكونوا . فنظرة الإسلام أوسع وأنبىل مما بظن الشاعر [التونسى] .

الأسس النفسية والاجتماعية

للتسامح في الإسلام

نسمع أصواتاً قوية تنبعث منذ قرن من أهل الغيرة على الإسلام في شتى أقطاره وتنادى « لنعد إلى الإسلام » .

وهي صيحة كريمة جديرة بالاستماع ، وإنما لانتشر وتشتد على مر السنين من الغيورين والمتظاهرين بالغيرة على الإسلام .

ولعل هناك صيحة أجدر منها بالاستماع هي « لنُعيدَ إلىنا الإسلام » وبين الصيحتين فرق دقيق يفقهه من قدر عليه .

إن عودتنا إلى الإسلام أو عودة الإسلام إلينا لاسبيل إليها إلا بإزالة الطبقات المتحجرة التي تراكت عليه خلال قرون الاضمحلال الماضية فطمرته في ظلمات عميقة ، حتى صار الاهتداء إليه من أشق الأمور وأعوصها على العقول .

إن الأصل الجيولوجي لهذه المتحجرات مواد خبيثة فاسدة فضحت بها عقول وقلوب متعفنة خلال قرون طويلة كانت تحرص على خدمة أنفسها عن طريق ارضاء نزوات الطغاة من السادة ، وتسخير الرعايا لهم باسم الإسلام ، أو تحرص على عدم التصادم معهم فحاملتهم على حساب الإسلام ، أو دخلت الإسلام بعد أن فشلت

في حربه وهي خارجة عنه لتكيدته من داخله ، أو وضعت عالية في مراكز الصدور لتتطرق باسمه في عصور الجهل والفساد وليس لها من الفقه به ولا الكرامة ما يؤهلها للنطق بلسانه .

ولقد تنابع تراكم هذه الطبقات عصراً فمعصراً حتى أخفت معالم الإسلام الصحيح عن أعين الشعوب الإسلامية ، ولقد عجز الغيورون على الإسلام من المصلحين أن يزيلوا هذه الطبقات ، لأن جهودهم كانت ضئيلة متفرقة ، فلم تكن من القوة بحيث تستطيع تدميرها وطرحها بعيداً لإبراز البناء الصحيح للإسلام ، ولا سيما أنها كانت تلاقى الويلات من حرب القاعين على هذه المتحجرات وهم طبقات ثلاث أولاهما السادة الذين يزول سلطانهم بزوالها ، وثانياتها مدنيتها المرتزقة بسدائها وهم متعاونون مع الطغاة على حرب كل من يحاول مساسها ، وثالثها قطعان العامة التي « لا تريد » عن فهم مستقل بل « يراد » لها فتريد .

والفضل للاستعمار . هذا البلاء الذي أطبق على الشرق من

العرب بكل ماله من جبروت وخذاع ليأخذ سخرها .

لقد أفاق المسلمون من سكرتهم وغرورهم على أثر ضرباته

القاسية : ضربات مدافعه ومذاهبه وفلسفاته ونظم معاشه وكل

مقومات حضارته ، كانت ضربات مدمرة أصابت غروره في مقتل .

قال نيتشه « كل مالا يقتلني قوة لي » وكانت ضربات العرب

للاشرق جبارة قاسية ولكنها لم تقتله ، فأيقظته وكانت له قوة .

لقد رأى المسلمون سيل العرب العرم يكتسحهم أمامه في عنف متلاحق ، فحاولوا أن يتحصنوا بماضيهم القديم ، ولكن الحصن الروحي الذي لا ذوابه فراراً من مذاهب الغربيين وفلسفاتهم وأنماطهم المختلفة في الاعتقاد لم يدفع عنهم ضرراً ، ولم يقف في وجه ضربة . إنه كان حصناً مزيفاً من التقاليد الفاسدة المتحجرة شاده مرضى القلوب والعقول من الجهلة والنافقين من المتجرين بالعقائد إرضاء للمستبدين الفاسقين من الرعاة ، وقد شاده أولئك المرتزقة على نسق حصن الإسلام الحقيقي ، فله منه كثير من شكوله وألوانه وبهرجه ولكن ليس له معدنه وصلابته وجماله وكفايته ، وكان هذا التشابه الكاذب من جراء دقة التزييف إلى حد أنه خدع الشعوب فظنت الزيف هو الحقيقة التي ليس وراءها حقيقة .

وكما نهض غيور ليرشد الناس إلى الحصن الصحيح المظمور تحت أطباق هذا الحصن المزيف حاولت هذه الطبقات الثلاث تحطيمه ، لأن هذه الطبقات الثلاث وحدها في كل زمان ومكان هي التي تحرص على كل وضع قائم مهما بلى وفسد وجر على الرعية من بلاء .

إن الحصن المزيف لم يعد يغني عن المتحصنين به شيئاً أمام ضربات الحقائق المتوالية عليه والملحة في هدمه من الداخل والخارج . وإن الشكوك في قوته لتخالج كثيراً من المتحصنين به ، وكثير منهم قد فقدوا الثقة بكفايته ، فهم يتسللون منه في تكتم

حذر ليلوذوا بغيره مما شادوا لأنفسهم أو وجدوا غيرهم قد شيده ،
وكثير من القائمين فيه إنما يقيمون لجهلهم بتخارجه ، أو للجري
على حكم العادة التي تنفر من التغيير ، أو لعجزهم عن إشادة غيره
أو لجهلهم بما شاد غيرهم ، ولو قدروا وعلموا لجلوا عنه غير
آسفين ولا نادمين .

وما أقل من استطاعوا النفاذ إلى حصن الإسلام الصحيح بعد
مجاهدات عنيفة مخيفة ، فلاذوا به آمنين مطمئنين ، وما أقل من
يجاهرون بنفاذهم إليه ، ويحاولون أن يقودوا غيرهم إليه إلا في
رفق حذر خوفا من أن يتهموا من الأدعياء والأغبياء بالمروق من
الحصن الزائف وما وراء ذلك من ألقاب وأحكام منها الحيانة
العظمى واستباحة الدم .

إن الحركات الانتقاضية وروحية وعقلية وذوقية ، في شق الأقطار
الإسلامية ليست إلا انهيارات في هذا الحصن الزائف ، وإنها
انتشر بخير كثير ولو كره المنافقون ، ومن سمات الخير فيها بطؤها
وتعدد جوانبها مما يدل على أنها طبيعية وليست مغتلة بمصلحة فرد
أو طائفة خاصة ، بل إن المنافقين ليجارون المخلصين في حركاتهم
ويعملون على عرقلتها من الداخل حيناً والخارج حيناً ، ولكن
كل تلك الحركات المخلصة والمنافقة لا بد أن تطيح بذلك الحصن
المزيف « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث
في الأرض » .

وعلى ذوى الغيرة من المسلمين أن يعملوا على قلقلة هذا الركام ونسفه وتذريته حتى ينكشف على سطح الأرض الحصن الحقيقى الرابض تحت هذا الركام ، فإذا برز لوجه الشمس استطاع الناس أن يدخلوا فيه أفواجا .

وعلى هؤلاء الغيورين أن يكونوا « عاقلين » فى النقض حتى لا تخر عليهم كتل الحصن الزائف فتسحقهم أو تطمرهم تحت طبقاتها أو تنهار جملة فتصدع أركان الحصن الأصيل تحته ، ولا يحزنهم الرضوض والجروح والكسور التى تصيبهم من جراء ما يتساقط عليهم من حجارة وحصى ، ولا ما يثور فى وجوههم من غبار خلال النقض ، فهذه من طبائع الوجود . ولا بد للجهاد من ضريبة ، ولا يحزنهم ما يقذفهم به العائدون به فإن الزمن حليفهم ضده وضد من فيه ، وخير ما يفعلون أن يدعواهم بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلواهم بالحسنى ليستخرجوهم منه قبل أن ينقض عليهم فيهلكوا تحته ضحايا الغباء لاشهداء الحق . وإلا فدماءهم على رؤسهم جزاء ما يعتدون « إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » إن المحاولات التى تبذل لترميم الحصن الزائف هنا وهناك محاولات خائبة . إنها قد تطيل أجله ولكن مصيرها كمصيره الضياع . إن كل شئ يقف فى طريق الزمن لابد أن مصيره البوار . فلينجين امرؤ نفسه قبل أن يحل عليه العذاب . إن البنيان المزيف لم يعد صالحا للسكن فيه ولا التحصن به ،

فمن شاء أن يحفظه رسوماً وطقوساً وقوانين جامدة فليقله من عالم العمل الحى إلى عالم المنحف الميت .

يجب أن نفقه روح الإسلام واتجاهه من وراء نصوصه ، وإلا أسأنا إلى أنفسنا وأسأنا إلى الإسلام .

لو أننا جمعنا كل المسلمين من شتى أقطار العالم وحشدناهم فى صحارى شبه الجزيرة العربية لهلكوا ، وخير لهم أن يظلوا حيث يعيشون فى أرض الله الواسعة . ولو أننا نقلناهم من أزمנתهم إلى مطلع فجر الإسلام أو غيره من بعده وطبقت عليهم تطبيقات أهله لهلكوا ، وخير لهم أن نحمل إليهم وهم فى أزمנתهم روح الإسلام واتجاهه كما تدل عليه نصوص القرآن والسنة الصحيحة ، ونأخذهم به وهم حين هم فى أزمنتهم ، فإنهم سيجدون أن الإسلام أصلى لهم من كل نظام سواه ، ولن يضيق مذهبه بهم أينما كانوا ، وإن ضاق بهم تشدد المترقبين الجهلاء من الناطقين باسمه ، أو كما قال بشار :

« لعمر ك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق »

إن الدين ينبع من القلب بالتربية الصالحة ومزاولة الفضائل ولا يلصق به إلصاقاً ، فلنفجر بواعث الإيمان فى قلوبنا تفض ينابيعه حتى تنتظم فيوضه كل حياتنا ، وتنبعث معها كل قوانا النفسية والعقلية والذوقية ، وينضح بالدين كل ما نقوم به من حركات ، بل كل ما يجيش فى نفوسنا من أفكار ونيات .

إن الإيمان أصل القوة ، والقوة توأم التسامح ، ونظرة إلى التاريخ الماضى والحاضر بين الأفراد والجماعات تكفينا اقتناعا بأن التسامح أبدا قرين القوة ، فعصور القوة هى عصور التسامح ، والأقوياء هم المتسامحون ، والإنسان الفرد تتعاوره أطوار التسامح والتشدد بقدر ما لديه من قوة ، أى بقدر ما عنده من إيمان . إن الدين يعترف بما فى الإنسانية من ضعف ، ولسكنه مع ذلك يثق بها أشد الثقة ، ويرفعها إلى أعلى مقام .

الإسلام نظام واحد من حيث هو عقلى مجرد ، ولسكنه — من حيث هو عقيدة وشريعة أو دين يتدين به ، وينهج عليه — نظم تختلف وتتعدد باختلاف المتدينين به ، فليس دين كل إنسان إلا صورة شخصيته أو صورة نفسه وحياته الحقيقية بكل ما تأثرت وأثرت فى الحاضر والماضى من خير وشر ، وبكل ما لها من قوى خلقية وعقلية وذوقية واقتصادية فى موقعها مما حولها ومن حولها ، وكل إنسان يختلف فى هذا عن كل إنسان سواه ، ولهذا كان دين كل إنسان يختلف عن دين كل إنسان سواه ، فإسلام النبي محمد غير إسلام عمر وعلى وخالد ومعاوية وعمرو وحسان وعمار وأبى هريرة وعائشة وهند ، وكلهم يدينون بدين واحد ويعيشون فى عصر واحد وبيئة واحدة ، فكيف إذا تناءت العصور أو اختلفت البيئات . إن كل مسلم يختلف عن سائر المسلمين فى إسلامه ، ومن ثم يجب ألا نجرد الفاضل من فضله الشخصى ونسبه إلى دينه ،

كما يحرم أن نجرد الناقص من نقصه وننسبه إلى دينه ، فالمدِين فضله
ولكنه غنى عن فضل الفضلاء من أتباعه كما هو برىء من سوء السيئين .
منهم ، والدين لاشك يزيد بفضل الفاضل فضلا ، لأن اتجاههما
واحد ، ولكنه يندر أن يزيد سوء السيء ، بل يندر أن ينجو
من تسخيره إياه تسويفاً لسوته لأنهما يسيران في اتجاهين متضادين .

ولنلاحظ أن الإسلام — وكذلك كل دين ونظام — إنما
هو وحدة متكاملة الأجزاء ، أو هو بنية حية ، وأن قوته وجماله
في وحدته وتكامل أجزائه ، وأن مما ينقص قوته وجماله ترقيعه
بما لا يتفق وروحه وتصميمه ، فإن جسماً مركباً من أجمل رأس
لرجل وأجمل بدن لامرأة هو أقبح من سائر الرجال والنساء
جميعاً ، فعلينا أن نقبل الإسلام كله فيما جاء به ، وأن نتجنب ترقيعه
بلا ضرورة مهما تكن الرقعة من القوة والجمال ، وأن نكمله مما
جاء فيه ، وأن نستأنس بروحه واتجاهه وتصميمه الهندسى العام
فيما لم يرد له حكم صريح فيه ، ولنا في القياس بأوسع معانيه وفي غيره
مدد لا ينفد ، ولنحذر كل الحذر من أن ننقل الناس من أزمته
وبيئاتهم إلى غيرها فهذا شر جنابة عليهم وعلى النظم التي يحاول
أخذهم بها ، وحملهم عليها .

إن الدين يحاولون أن يقفوا بنا حيث وقفت تطبيقات قواعد
الإسلام في أى عصر من عصور النهوض فضلاً عن عصور

الاضمحلال كمن يحاولون أن يكفوا الكواكب عن الحركة
أو يرجعوها إلى حيث كانت في تلك العصور .
كلتا المحاولتين مضحكة ، وكلتاها مؤسفة ، وكلتاها غير
مستطاعة .

وكلتاها معجزة من معجزات الغباء والجهل الذي ليس
وراءه جهل بنظام الأفلاك ونظام الإنسانية ، والغرور الذي ليس
وراءه غرور بقدرة المحاولين على حبس الإنسانية عن التطور ،
وكف الكواكب عن الحركة . وهذا ما يدل عليه خطور هذا
الوهم بالفكر فضلا عن العمل على تنفيذه ، فعلى من يهجم في
خاطره المسوخ وهم القدرة على تعويق الإنسانية عن التغير أن
يورد على خاطره وهم القدرة على إيقاف الكواكب أو إرجاعها
إلى الوراء ، فإذا كان يصدق أن له قدرة على صراع الكواكب
فليثق بأنه إما إله وإما مجنون .

إن روح الإسلام وأبجائه باق لا يتغير ، ولا حاجة به ولا بنا
إلى أن يتغير ، مادامت السموات والأرض ، وما دامت الناس كما
نرى ، لأنه دين الفطرة ، والفطرة لا تتغير وإلا لم يكن الإنسان
حينئذ إنسانا . هذا الروح في إبحاهه الصحيح هو الذي يجب أن
ننظر إليه ونصونه ، ولا نفرع من تغير تطبيق قواعده ونتائج هذا
التطبيق باختلاف الأزمنة والبيئات ، فالإنسان يكون جنينا وطفلا
وصيا وشاباً وكهلا وهو هو دون أن يصير إنساناً آخر ، وكل هذه

الأطوار كامنة في معدنه وروحه الذي لا يتغير بتغير البيئة والمظاهر ونحوها ، فلتعمل على تجلية هذا الروح ، ولتسندن له وحده بالفضل ، ولتأخذ به أنفسنا حسب زمننا مع المحافظة عليه سالما .
لتفقه نصوص القرآن والسنة مجتمعة بل روحها واتجاهها ، ولا علينا أن نسترشد كما استرشد عباقرة الفقهاء ممن فقه روح الاسلام واتجاهه أو ما يسمى حكمه بأوسع معناها من وراء النصوص دون الوقوف عندها وحدها ، مع فقه البيئة والأزمة المتغيرة وتقديمها قدرها ، ومراعاة حاجة الناس عامة في البيئات والأزمات التي يعيشون فيها ، ولنا فيها يسميه بعض الفقهاء المصالح الرسالة مجال يسع الناس في كل زمان ومكان . وهذا هو الاسلام الصحيح وما عدا ذلك فهو مزيف دخيل عليه ولو حسنت نية المزيفين . وإن وزن كل من هذه الأشياء بالحق والتوفيق بينها من غير إهدار شيء منها هو الفقه الصحيح وما عداه فأهواء باطلة ليس لها أمام الناس ولا أمام الإسلام من شفيح .

ومن أجل هذا وجب أن تكون صيحتنا « أعيدوا إلينا الإسلام » لا « أعيدونا إلى الإسلام » وفي السنة خاصة — بعد تنقيتها تنقية دقيقة بحيث تطابق نصوص القرآن ، ولا تصادم العقل ولا ما ثبت بالبرهان — يجب أن نفقه روح القول وباعث العمل وداعى الإقرار ، فقد يكون القون لمناسبة خاصة ، والعمل ملاحا لحالة خاصة والإقرار وقوفا مؤقتا لداع خاص لم تكن معه

حاجة ملحة إلى الاعتراض على ما أقر ، والإقرار هو أولى جوانب السنة بالدراسة لأن المشرع لا يعترض عبثاً ، أو لمحض المشاكسة ، أو حب التغيير ، فحسب أمر كي يقر ألا تنجم عنه ، ضرة في بيئته ، أو تكون حربه شراً من مسالته مع مافي يقاوم من مضرة ، ويترك المشرع للظروف ما أقره مضطراً كي يتفاد ضرره فيتخلى عنه أنصاره طائعين ، وقد يصير النافع ضاراً والضرار نافعاً ، أو تصير عاقبة حرب عادة أو إنسان مأمونة بعد أن كانت غير مأمونة ، أو يصير غير المحتمل محتملاً والمحتمل غير محتمل فلا بد من تغير الأحكام تبعاً لكل ذلك ، ثم هناك أمر لا مناص من تقريره وهو الطاقة البشرية ، فليس الدين مسألة حسابية عقلية ، ولا الناس أرقاماً ولا المشرعون آلهة يخلقون ما يشاءون ، بل هم مقيدون بهذه الطاقة البشرية بكل ما فيها من قدرة وضعف وخير وشر .

علينا أن نفقه البشرية وبيئاتها قبل أن نفقه القوانين التي نريد أخذها بها وإلا مسخنا البشرية وحططنا القوانين .

انكبن « محمديين » « عمريين » في إسلامنا ، ولنا في حياة محمد نبي الإسلام أسوة حسنة ، ولا يطلب منا أن نكون مسلمين أكثر من إمام المسلمين عليه السلام ، وحسبنا من دروسه موقفه من زان جاءه معترفاً بجريمته وسارق جيء إليه به فاعترف بسرقة ، وحسبنا من من الدروس الدرس العمري في موقفه إزاء « المؤلفعة قلوبهم » وفيهم نص قرآني ، وإزاء عبيد حاطب بن أبي بلتعة وقد سرقوا

واعترفوا بالسرقة وفي السرقة نص قرآني . إننا لوقفهنا درساً واحداً من هذه الدروس لأنحلت أمامنا بالأحكام الإسلامية آلاف المشكلات ، ولم تكن هذه الأحكام ذاتها أمامنا مشكلات تصيب العقول بالدوار من غير أن نجد لها حلاً . إن هذه الدروس على يسرها من أحكام الدروس التشريعية وأقواها للتوفيق بين تقلبات الأحوال وأحكام الإسلام ولو كانت من نصوص القرآن .

لقد قرر الإسلام أن الفلاح في الحياة الدنيا والأخرى له ركنان : الإيمان والعمل الصالح .

وفي القرآن عشرات الآيات تؤكد ذلك تؤكد صريحاً لا يشوبه غموض ولا تردد ، فإذا اجتمع لحياة هذان الركنان فهي صحيحة سالحة ، وإلا فهي باطلة زائفة ، والإنسان الصحيح هو المؤمن ذو العمل الصالح ، ولا عبرة بجنسه ولا قوميته ولا حسبه ولا نسبه ، ولا نحو ذلك . ففي القرآن مثلاً « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ^(١) » وفيه « الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ^(٢) » وفيه « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً ، خالدين فيها لا ينفون عنها حولاً ^(٣) » .

(١) سورة النحل - ٩٧ (٢) سورة يونس - ٦٤

(٣) سورة الكهف - ١٠٨

بل إن الإسلام يفتح باب التلاح والرضوان في الدنيا والآخرة أمام كل إنسان مهما يكن دينه مادام مؤمناً صالح العمل ، وفصل المقال في هذا الإشكال الآية الآتية من سورة البقرة « إن الدين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (١) » .
ولا أعرف ديناً ولا نظاماً ولا مذهباً سبق الإسلام أو لحقه في تقرير هذه البشرية للإنسانية ، والتعالى بالإنسان المؤمن الصالح العمل إلى رضوان الله في الدنيا والآخرة ، وتلك ذروة في التسامح بين المختلفين في الدين لم يسبق الإسلام إليها سابق ، ولا يمكن أن يلحقه فيها لاحق .

فليفقه المسلمون ذلك ويعملوا بهديه إزاء مخالفهم من أهل الأديان الأخرى ، وليأخذوا أنفسهم بهداه في موقفهم حيالهم فلا يعمدوا معهم إلى الشعب وانتطاول . وليعرفوا الفضل لدويهم مهما تختلف صورته ، فالعبرة بمعادن الحقائق لا بأشكالها ، ولقد يؤكد بعض ذلك ترك الإسلام الناس وما يعتقدون سواء في ذلك أهل الكتاب ومن لهم شبهة كتاب ، وتولية الأنبياء جميعاً ودعوتهم جميعاً مسلمين . و « إن الدين عند الله الإسلام (٢) » والإسلام أن يسلم المرء وجهه لله وهو محسن .

(١) البقرة — ٦٢ ، وانظر سورة المائدة — ٦٩

(٢) آل عمران — ١٩

ولنجاول أن نفصل فصلاً حاسماً بين قواعد الإسلام وتطبيقاتها حتى في القرآن خلال عصر النبي وما تلاه من عصور ، فالعصور تتغير ومن ثم تتغير التطبيقات أو الأحكام ، وندر أن تتغير القواعد ، بل لا حاجة إلى تغيير قاعدة إذا فطنا إلى روح القواعد مجتمعة كوحدة أو بنية حية ، وفقهنا اتجاهها . فإن أكثر ما نظنه من أصول الإسلام أو قواعده هو نتائج تطبيقاته التي جرت في عصور غير عصرنا لدواع خاصة قد تغيرت فلا بد من تغير التطبيق واللجوء إلى القواعد ذاتها بل روحها ، وذلك أجدى لنا والإسلام ، بل هو الحق وغيره الباطل .

إن كل نظام مهما يكن مصدره لا يزال بخير ما تطور حسب المصلحة العامة ، والناس بخير ما تطور نظامهم معهم ، وإلا أهلكهم وأهلكوه ، إن لم يستبدلوا به نظاماً غيره مناسباً لهم . وإن شريعة الأمة ونظامها وفنونها وقوانينها وصناعاتها لا بد أن تكون نسيج روحها العامة في بيئتها ، وتعبيراً عنها ، وهي بذلك تتسق معها ، وإن لم تكن كذلك كانت غريبة عنها ، وهذا من نواميس الاجتماع .

ولنفطن إلى حقيقة يسيرة هي أن الديانات والنظم وما إليها جاءت لمنفعة الناس ، ولم يكونوا هم من أجلها ، وعلى من يريد الإفتاء أن يدرس أحوال البشرية التي يريد الفتيا لها ، وما تحتاجه وما لا تحتاجه ، وما تطيقه وما تعيا به ، والخير العام لها حين الفتيا ،

وذلك قبل أن يدرس النصوص والقوانين ، فمن جهل ذلك هيات أن يفلح في فتاواه ولو أحاط خبرا بكل نصوص الكتب وكل القوانين .

إن المفتي كالطبيب عمله أولا أن يعرف حال المريض العامة ونوع مرضه وموضعه وعلاقته ببنيته عامة وما يناسبه من الأدوية وما إلى ذلك قبل أن يشرع في العلاج ، وإلا أهلك المريض مهما يكن علمه بمخصائص الأدوية ومواقبتها وكمياتها ونحو ذلك .

إن حال المريض هي التي تحدد العلاج وكل ما يتصل به . وإن حال الناس هي التي تحدد النظام الملائم لهم دون سواه . إن مصلحة الناس العامة هي الغاية من كل النظم أيا كان مصدرها ، فلننظر أين مصلحة الناس كما نستنبطها من أحوالهم لا من فرض نفترضه من خارجهم ولو أعجبنا ظاهره .

لا سبيل إلى اللقاء بيننا وبين الإسلام حتى ينتقل إلينا ويتأقلم أو يتوقت أو يتأمم بحسب أحوالنا ، فلنعمل على ذلك أولا ، أما البكاء عليه وعلينا في جهد ضائع ولو كنا مخلصين فيه .

إن علينا أن ننقله من عالم المتحف إلى عالم العمل ، بدلا من أن يظل هناك منفصلا عن حياتنا أو أن ننقل أنفسنا إلى عالم المتحف لنلتقي به هناك .

إن الدين عمل ، فلنأخذ أنفسنا به ، وليس مما يشرفنا أن نعدد مناقب ديننا وفضله على غيره من الأديان والنظم ، وما كان عليه

أسلافنا من فضل وعظمة وسلطان حين دانوا له ، فكل أولئك وحده — وإن كان حقاً — لن يغير من الأمر شيئاً ، ولن يكسبنا خيراً ، ولن يدفع عنا شراً . علينا أن نغير أخلاقنا وأعمالنا ونصلح نفوسنا من المرض لتكون أهلاً للإسلام وإلا فلن تنصلح أحوالنا . علينا أن ننهيأ بأخلاقنا وأعمالنا لقبول الدين أولاً ، وإلا أسأنا إليه ، والقرآن يقرر أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

إن ديننا لم يجعل القيام عليه حكراً لعدد ولا لطائفة ، والنبى نفسه لم يدع لنفسه أكثر من أنه بشر مثلنا أوحى إليه ، فحقه فى الدين ما عدا الوحى ليس أكثر من حقنا ، وواجبنا نحوه لا يقل عن واجبه ، وكل مسلم إمام نفسه مادام قادراً على ذلك . ويقرر الإسلام أنه لا واسطة بين المرء وربّه إلا نيته وعمله ، فمن يطلبه فهو قريب إليه ومن تقرب إليه خطوة تقرب إليه خطوات ، وكل إنسان ملزم بأن ينظر لنفسه ويعمل لها ، ولا يعفيه من هذا الواجب طاعة سيد ولا كبير . فمن يحتجون أمامه بأنهم أطاعوا ساداتهم وكبراءهم فأضلّوهم السبيل فجزاؤهم أن يؤتوا أجرهم ضعفين من العذاب ويلعنوا لعنا كبيراً ، ومن يحتجون باتباع الآباء فحجتهم داحضة ، ولن يعفى عنهم أبائهم من الله شيئاً . « من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى (١) » .

يقرر النبي أن « الدين المعاملة » ويقول : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وألوانكم ولكن إلى قلوبكم وأعمالكم » فالنية الخالصة أو الإيمان والعمل الصالح وحدهما ، هما العملة الصحيحة الرائجة عند الله وعند الناس أيضا .

ويقرر الإسلام لقاء ذلك أن لا سلطان لأحد على نفس الإنسان وعمله ، فالمرء وما يرى والمرء وما يعمل « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي^(١) » ومحمد لا يدعى لنفسه سلطانا على أحد ، والقرآن وسيرة النبي يؤكدان أنه ليس إلا هاديا « لست عليهم بمسيطر^(٢) » و« ما على الرسول إلا البلاغ^(٣) » و « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء^(٤) » .

ولأعلم أنه سبق الإسلام دين ولا نظام يقرر كما قرر هو الكرامة للإنسان لمجرد أنه إنسان دون نظر إلى جنسه ولا دينه ولا قومه ولا حسبه ولا نسبه ، ولا لحق الإسلام حتى اليوم نظام قرر هذه الحقيقة وأعلاها مثله « ولقد كرمتنا بني آدم^(٥) » فكرامته حتى له لا يجوز أن يبغض منه شيئا حتى إذا عمل ما يستوجب إزهاق روحه فلا يجوز احتقاره ولا القسوة عليه ولا التمثيل به ولا ظلمه فمن حقه أن تصان كرامته كاملة لأنه إنسان ليس غير ، وإن زنى وإن

(١) البقرة - ٢٥٦

(٢) المائدة - ٩٩ ، وانظر ٩٢

(٣) الفاشية - ٢٢

(٤) الإسراء - ٧٠

(٥) البقرة - ٢٧٢

سرق وإن قتل وقد نهى النبي عن المثلة ولو بالكلب العقور ونهى
عن الفسوة بمختلف ضرورها حتى على الحيوانات فكيف بالإنسان
الذي كرمه الله ، وجعله في الأرض خليفة لثقتة به مع اعترافه
بضعفه « وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة
قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك
وتقدس لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون ^(١) » فالضعف الإنساني أمر
واقع ولا سبيل إلى تجاهله ولا مقابله بالعنف ، وحق الإنسان
في صيانة كرامته مهما أخطأ حق مقرر ، وكذلك حقه في العطف
عليه مع الثقة به ، والمرجع في كل ذلك القانون الإنساني العام :
« عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » أو كما قال النبي « لا يؤمن
أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » والآية « خذ العفو وأمر
بالعرف ^(٢) » ، والآية « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة
الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ^(٣) » ، والآية « فإعنا عليك البلاغ
وعلينا الحساب ^(٤) » ، و « ما أنت عليهم بحبار قد كر بالقرآن من
يخاف وعيد ^(٥) » فمن ادعى لنفسه من السلطان على ضمائر الناس
أكثر من النبي فليس له من الإسلام حجة ناهضة ، بل إن الإسلام
يتبرأ منه وينكره لأنه يدعى لنفسه الربوبية على البشر وقد انفرد بها

(١) البقرة - ٣٠ (٢) الأعراف - ١٩٩

(٣) النحل - ١٢٥ (٤) الرعد - ٤٠

(٥) ق - ٤٥

الله ، وأنكر على فرعون أن يزعم لنفسه ذلك حين قال لقومه :
« أنار بكم الأعلى » ولا معنى للربوبية في هذا ومثله إلا السيطرة
على نفوس البشر لا الخلق ولا الرزق ولا الحياة ولا الموت ، فما
فرعون ولا غيره بجاهلين أنهم لا يملكون لأنفسهم موتا ولا حياة
ولا نشورا . فنفس الإنسان لخالقها وحده ولا سلطان عليها لأحد
غيره ، والخطوة الأولى في الإسلام هي « لا إله إلا الله » وليس
معنى الإسلام إلا أن يسيطر الإنسان على نفسه ويسلمها إلى الله
الذي بيده وحده الملك . لأن من لا يملك شيئا لا يقدر أن يسلمه .
فحرية الضمير والاعتقاد والفكر والعمل من صميم بنية
الإسلام ، والمساواة بين أصغر الناس وأكبرهم أمام الله كاملة
وإنما يتفاضل الناس بالتقوى وهي المحور الجديد الذي جاء به
الإسلام لتدور حوله حياة البشرية فهذه «التقوى» هي القيمة الوحيدة
للبشرية في الإسلام وما عداها فأصنام لا يعترف بها ، بل ينكرها
ويحاربها بلا رحمة ولا هوادة .

لسنا مسلمين حتى نعرف لأنفسنا ولغيرنا الكرامة ، ونتمسك
بها في العسر واليسر ، ولن نكون كراما ونحن نعتدى على كرامة
غيرنا أو نرضى بأن يعتدى عليها أماننا . وصدق المتنبى إذ قال :

واحتال الأذى ورؤية جانيه غداء تضوى به الأجسام .

ومن يأخذ نفسه بالنظافة في جسمه وملبسه ومنزله عن نزعه صادقة
يؤذيه ألا يرى غيره نظيفا ، فلا سبيل للإنسان إلى الغبطة بفلاحه

حتى يكون الفلاح عامًا . ومن لم تؤلمه مناظر الشقاء فهو من الأشفياء ، ولو زعم أنه من السعداء . وما أرقى المصلحين ودفعمهم إلى تعريض أنفسهم لشقى ألوان العذاب والمعصرة في حرب الشرور وهم يعلمون أنهم سيكونون ضحاياها إلا تفورهم من رؤية الفساد ، واستبداده بصرعاه من الفاسدين ، وما حاربوا الفساد رغبة في نفع شخصي ولا زهداً في الراحة والسلامة ، إنهم يشورون ضيقاً بالشرور التي تحل بغيرهم وحباً في استنقاذ ضحاياها ، ولولا ذلك القلق المقيم المقعد لكان لهم من صلاح أنفسهم ما يدعوهم إلى التماس العافية في البعد عن مشاغبة الأشرار وهم لا يجهلون جرأثر إشهار الحرب على الشر ولا البليات التي تصيبهم حتى من الأشرار الذين يعمل هؤلاء المصلحون على استخلاصهم من الشرور ، وما أعظم الكرامة الملهمة التي تنسب إلى أكرم بن صيفي الحكيم العربي الجاهلي « لو اعتبرت مواقع الحن ما وجدت إلا في مقاتل الكرام » وما أجدرها بنبي فإنها كلمة نبوية .

على كل منا أن يأخذ نفسه بفضائل الإسلام قبل أن يدعو غيره إليها ، ولا يجعل الإسلام سلعة تصدرها لغيرنا لا لاستهلاكنا ، وعلينا أن نجفف عيوننا من الدموع الكاذبة على الإسلام ، فإن دموعنا على عليل لن تشفيه من علة بل يشفيه منها علاجه ، ولانكون كذلك كما قال الفرزدق للحسين حين لقيه في خروجه إلى العراق فسأله كيف ترك أهله الذين دعوه إليهم لينصبوه خليفة علمهم

ويجاهدوا من حوله المتجرين بالإسلام فأجابه الفرزدق « تركتهم وقلوبهم معك وسيوفهم عليك » فلا يجوز أن تكون قلوبنا مع الاسلام وسيوفنا عليه ، فتلك أظهر آيات النفاق والكذب ، فلنكن معه بسيوفنا أيضاً وإلا كننا منافقين كاذبين .

وفي مثل ذلك جاءت الآية : « ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم فثبّطهم وقيل أقعدوا مع القاعدين ، لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين^(١) » .

وقد استنكر القرآن — بحق — أن يكذب الفعل القول ، كما تدل عليه الآية : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » كما استنكر الأمر بالخير وعدم العمل به وعده جهلا : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » .

إن الخواء الروحي ليطبق على العالم في عنف ، والأمم تضطرب في كل مكان ، والنظم القديمة كلها تتصدع وتنداعى عن قصد وغير قصد ، وأصحابها يخربونها بأيديهم وبأيدي غيرهم ، ويظهر أن البشرية تتقارب وتتجه نحو الوحدة العامة ، وهامى ذى تتوجع وتضطرب في انتظار دعوة جديدة تتمخص عنها بعد هذه الحمى

القاسية التي تعاني عذاباتها ، فما لم تتقدم رسالة روحية من الرسائل القديمة لسد هذا الخواء محتفظة بجوهرها الصحيح الملائم للفطرة الإنسانية منسلخة من قشورها وأعراضها البالية — وإن تكون هذه الرسالة إلا الإسلام — فلا بد من ميلاد رسالة جديدة تلائم الوحدة العالمية المنتظرة ، وإنها لعلى الأبواب ، فهاهذه الاضطرابات من حروب وإضرابات وفتن واضطهادات ونحوها إلا أعراض حمل الإنسانية لهذه الرسالة ، وإن تنابها المحموم لأظهر أعراض المخاض وما أسرع ما يضر بها الطلق فيخرج الوليد الموعود .

لقد خرج المارد «ديموس»^(١) من القمم الذي طال حبسه فيه ولا سبيل إلى إعادته إلى القمم مرة أخرى ، وقد خاب أحكم الساسة ورجال الدين والفلاسفة والعلماء والأغنياء في تسكين ثورته وترويض جماحه ، بل إن الحكام بجبروتهم والساسة بنحدهم ورجال الدين بنفاقهم وجودهم والفلاسفة بترفهم عنه وعدم امتساعته آراءهم والعلماء بما وضعوا في يده من أسلحة وما مزقوا عن عينه من حجب وحطموا عن جسمه من قيود ، والأغنياء باستئثارهم دونه بالرزق ونحوهم من القادة بففلتهم وحمقاتهم ولؤمهم — كل أولئك يزيدون من ثورته وضراوته وجبروته ولا سبيل إلى تسكين ثورته وترويض جماحه إلا بالدين . وقد بدأت الحرب بينه وبين السحرة من قديم ولقد بدأت المعركة الأخيرة

(١) ديموس كلمة يونانية معناها « الشعب »

في هذه الحرب وقد أفلست الديمقراطية بجميع مذاهبها وأساليبها الرأسمالية ، كما أن الشيوعية نفسها - وإن تكن عوناً له ضد سحرته - هي أيضاً عون لرد ثلثه على فضاءه . فمسيره معها أن تدمر أعداءه وتدمره . الديمقراطية دواء غير ناجع ، والشيوعية سم نافع ليس له من الدواء إلا المظهر ، بل هو مرض وبيل . فلا بد من تعويذة جديدة .

والإسلام يصلح أن يكون هذه التعويذة إذا أحسن المسلمون تنقيته من شوائبه ، والتمسك به ، وعرضه من خلال أعمالهم لا بأطراف ألسنتهم وأقلامهم ، لأن الأعمال ترجمان الإيمان القلبي والنبي يقرر ذلك « الدين المعاملة » وليتقدموا إلى المارد مؤمنين بتعويذتهم في ثبات وإخلاص حتى يطحن إليهم فيسكنوا ثورته ويروضوا جماعه . وليعلموا أن ذرة من الشك تتسرب إلى قلوبهم لا بد أن تحملهم على الكوص أو الضعف عند اللقاء ، أو الجزع عند البأساء ، والمارد إذا أحسن من المعوذ أي ريبة أو تردد أو وهن لا بد أن يحطمه ويلتهمه .

وليعلم المسلمون أنهم إذا خابوا في كبج المارد ، فلا فلاح لغيرهم في كبجه ، ولا بد من ظهور تعويذة جديدة تكبجه لأن المارد لا يستغنى عن تعويذة تكفيه وتكفي غيره شره ، وإلا أسرع في تحبضه حتى يردى نفسه . وإن الأمل في كفاية الإسلام لعظيم ،

وإن كان دونه الأمل في إقدام أهله على هذه المحاولة . وليتدبر أولو الألباب أن الحياة تحرص على الفرد ما دام صالحاً للحياة مهما يكن خطره ، وأن حرصها على النوع أشد من حرصها على الفرد مهما يكن خطره ، فالدين باق مابقي الإنسان ، وإنما تغيرت الأديان بتغير الأزمان . وما تفصل الآيات وتضرب الأمثال وتساق البشريات والندر إلا لمن يعلمون ويعقلون .

ومما لاحظته أن الناس في هذه الرقعة من الأرض اليوم لا ينفكون يربطون كل مافي الحياة من وجوه النشاط بالدين ، ولا يتصورون أي حركة من حركاتهم ولا خلجة من خوالج سر أروهم ولا خطرة من خطرات عقولهم بمعزل عن الدين ، ولا شك أن هذا عرض مرضي من أمراض فتور العزائم عن العمل الصحيح ، وكلل العقول عن الفهم المستقيم وتبلد للشاعر عن الإحساس الصادق كما يجب .

وقد كان هذا المسخ مسيطرا على أوروبا خلال «العصور الوسطى» حتى جاءت نهضتها الأخيرة التي شفتها من هذا المرض وأعراضه فيما شفت من أمراض . ونحن في طريق النقاها والشفاء من الأمراض التي أصابتنا خلال قرون الانحلال الأخيرة ، والأمل منوط بالنهضة الحاضرة إذا أطرد تيارها ولم نصب بنكسة . هذا ما تقرره ونحن غير غافلين عن أن معظم الأنبياء قد نبغوا في هذه البقعة ، وأعظم الديانات بما فيها الديانات الكتابية الكبرى قد نبتت منها ، وفي

هذا مافيه من الدلالة على حاجة سكانها إلى الدين والتصليح الدينيين في كل حال منذ أقدم العصور إلى الآن ، وأن الدين هو أعظم العوامل في حياتهم ، وأنهم لا ينهضون غالباً إلا وراء الدعاة الدينيين فليس عجباً أن يكون ذلك من أسباب اعتمادهم في حياتهم غالباً على الدين : يلتفتون إليهم إذا عزوا كما يلتفتون إليه إذا هانوا ، ويتخلون به سبب كل ما يصيبهم من رخاء وضيق ، ويسر وعسر .

إنهم قبل أن ينشطوا العمل سلباً أو إيجاباً ، وخلال نشاطهم فيه وبعد فراغهم منه لا ينفكون يسألون : ما رأى الدين فيه ؟ بل يلحفون في السؤال إلحافاً ثم يعاودون الإلحاف مراراً حتى يعرفوا ما يرون أنه الجواب ، كما قد استوعبت دياناتهم كل مافي الوجود ، وكما لم تغادر أسفارهم صغيرة ولا كبيرة فيما كان ويكون إلا أحصتها ولو في شئون المعاش اليومية كالزراعة والملابس والمباني والأدوية . إنهم يبالغون في تضخيم عامل الدين حتى يملأ أمام عيونهم فضاء السموات والأرض ، وينسخ كل عامل سواه ، وكأنه لا أثر في الناس بزعمهم لكل مافي البيئة الطبيعية والاجتماعية من عوامل كالمناخ والجذب والحصب والأمطار والبحار والأنهار والأسرة والعرف وما إلى ذلك . فاذا حسنت لهم حال فمرجع ذلك في زعمهم للدين وحده ، وإذا ساءت حال فالمرجع إهمال الدين وحده .

وإن الجهل بالعوامل الأخرى أو تجاهلها لوخيم العاقبة ، لأنه يحول دون وضع نظام صحيح صالح للمجتمع يتمشى مع حاجاته

وآماله ، ولأنه يجعل تجربة كل نظام لا يحسب للدين فيه النصيب الأكبر تجربة حائرة بائرة ، وهو في الوقت نفسه يشكك الغيورين على الدين في صلاحه لحكم المجتمع ، ويقدم لأعداء الدين أومن لا يرون فيه رأى المنزمتين — حجة على خطأ أنصاره ، ويعزى المترددين بين الأخذ به وتركه باليأس منه والانسلاخ عنه إنسلاخا تاما ، لاسيما عندما يرون رجاله عقبة في سبيل كل إصلاح بل حرباً على كل إصلاح ، مع أن الخطأ في تجاهل الدين تجاهلا تاما كخطأ في الاستغراق فيه استغراقا تاما وإفراده وحده بالسلطان وإهمال ماعداء من العوامل .

وإن التجربة المصرية لكفيلة بأن تنبه السادرين في غرورهم وغمياتهم إلى مصيرهم ومصير الدين لو أنهم كانوا على استعداد للهداية .

فلقد حاول رجال النهضة المدركون لروح العصر وحاجات الأمة أن يجدوا عند رجال الدين ما يسد حاجتهم إلى التشريع والتقنين فلما رأوا تماديهم في العمى ، ومقتهم للحركة النافعة ، وإباءهم مداً الأمة بالتفسير الذي يسير تيار النهضة وبياركها ويوائم الحياة في خطواتها الحضارية ، وشغبهم على كل إصلاح — لما رأى ذلك رجال النهضة استدبروا رجال الدين وما يرون ، وولوا وجوههم شطر أوربا يلتمسون عندها من التشريع والتقنين ما يسير النهضة كما فعل رجال الحرب والصناعة والزراعة والطب وغيرهم حين التمسوا وسائلها وأساليبها في الأسلحة والآلات والتسميد والرى والعلاج ، ونماذج اللبس والمطعم والبناء والانتقال . . .

ولكيلا يثير رجال النهضة الغوغاء ومن لا يرتفعون عنهم من رجال الدين ، ولا يتركوا روح الأمة وضميرها وأخلاقها ومصالحها فريسة التحككات التافهة — أقاموا بين شئون الأمة ورجال الدين سداً لا قبل لهم باجتيازه ولم يتركوا لهم إلا شقة ضيقة منها ، بل إنهم لا يزالون يضيّقون عليهم الحصار بعد أن أجلوهم عن سلطانهم الواسع إلى تلك الشقة ، ولا يزالون يقلقون فيها مضاجعهم ، ويوقعون الاضطراب بين صفوفهم ، وبذلك تقلص سلطان التقاليد البالية عن حياة المجتمع المصرى كما تقلص سلطان الحكم الدينى .

ورجال النهضة وأشياءهم معذورون فى ذلك ، لعجز رجال الدين عن الإصلاح ، وجمودهم عن كل إصلاح ، بل توحشهم فى محاربة كل إصلاح ، ويكفى أن يكون الفساد عندهم مما أثر عن الماضى حتى يكون هو الإصلاح الذى لا يعالوه إصلاح ، كما يكفى أن يكون الإصلاح عندهم مما لم يؤثر عن الماضى حتى يكون هو الفساد بل الكفر الذى يطعن عندهم فى المروءة ويحل المال والدم ، ويوجب عذاب الله فى النار يوم القيامة .

وكان عليهم أن يجعلوا التدين مستندا للإصلاح وإسعاد الأمة وأخذها بأسباب النهوض بدلا أن يطلقوا صيحاتهم الناعبة ككتاباً وخطباء ومفتين ليشغلوا الأمة بهـاتراتهم الجدلية الفارغة عن مصالحها الحقيقية ويشككوها فى شرعية نشاطها ومطالبها وآمالها ويمكنوا للفساد والظلم فيها ليزداد تأصلا ورسوخا ، ويحولوا بين

المظلومين المسخرين وأن يرفعوا أصواتهم ضد ظالمهم المستعبدين لهم إذ هم يصورون لهم زوراً أن كل صيحة لمظلوم في وجه ظالمه هرطقة وكفر ، لأنها احتجاج على قضاء الله « كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً »

ولو كان الدين كذلك لكان لعنة ، ولو كان الدين كما يخرقون لكان الدين مصدر تعاسة ، ولكن الدين غير ما يفقهون و« يبغفون » وإنه لمصدر غبطة واستقرار وتعاون بين الناس ، وثقة بالله والحياة البشرية ، فمن العجب أنهم يدعون أن تقاليدهم البالية هي الدين فينفرون الناس منه ، وهو منهم ومن أباطيلهم براء .

ومن أعجب العجب في هذا الشرق التعس أن الناس لا يلجئون إلى الدين ، بل العقل والقانون والعرف أحياناً إلا لطلب التعويق عن النهوض ، وإضاعة الحقوق وتسويغ الظلم والكسل والحسة ، ولما يلجئون إلى ذلك لإثارة النشاط وشحنهم وتحريك الضمائر وتطهير القلوب وإطلاق العقول ، كأنما بعث الله الأنبياء بالأديان وألهم المسترعين الشرائع وأجرى العرف بين الناس ، ومنحهم العقول لتعطيل نشاط البشر وإغرائهم بالكسل والظلم والحسة .

وكأنما هذه القيم خطة مؤامرة محكمة الأطراف ضد راحة البشرية وكأن الله يأمر بالعباد ليرديهم في الشقاء والفساد . تعالى الله عما يظنون علواً كبيراً .

إنهم لا يذكرون الدين إلا ليقولوا دائماً : لا ، لا ، لا . ولا يذكرونه ليقولوا مرة : نعم .

إن هذه العوامل لأسباب الدين لم تقم أول أمرها — كما يظهر من تاريخها وأسبابها النفسية والاجتماعية والتاريخية — إلا احتجاجاً على الكسل والجور والحسنة والظلم ، احتجاجاً على تقاليد بالية قاتلة للنشاط البشرى وراحة الناس . إنها معيار جديد صحيح للأوضاع البشرية بدل معيار قديم زائف ، ومحور مكين سليم الوضع تدور حوله الحياة البشرية بكل ضروب نشاطها بدل محور ركيك مختل الوضع . إنها قوة تستجيش في السرائر بواعث الإيمان والشعور والتفكير والعزيمة للعمل من أجل صالح المجتمع وليست بمرض يغيض هذه البواعث ويقعد الناس عن العمل الصالح .

وهذا الموقف المؤسف الشائن الذي يقفه حماة الدين أو حماة التقاليد الدينية على الأصح هو أعظم شفيح لرجال النهضة في تجاهلهم أمر الدين ، أو أمر التقاليد التي يزعم حماة أنها الدين ، وفي تخلفهم من أفعالها كما حدث في مصر .

وقد كان رجال النهضة في مصر أرفق خصومة من رجال النهضة التركية الذين أخرجهم عن أترانهم فساد الأوضاع الدينية واستهساؤها على العلاج واحتضانها لكل فساد ، وإبائها مهادتهم ، فأنكروا الدين كله وجاهروه بالمعادى في غير تردد ولا لين ، ووطئوا رجاله ووطئوا ثقبلاً ، وشردوهم وشردوا بهم من خلفهم في الآفاق . بل حاربوا

ما اتصل بالدين كاللغة العربية بل الحروف العربية . وحاولوا أن يتجردوا من الشرق كله ، وإن خطأهم في هذا لأدنى من خطل رجال الدين أو التقاليد الدينية في تعنتهم ولومهم وغبائهم وحمائهم لكل الأوضاع الفاسدة ، ومحاربتهم كل إصلاح — فعلوا ذلك باسم الدين فضيعوا أنفسهم وأضاعوه .

لقد مكنوا — باسم الإسلام وحده — لشرذمة من الخصيان والإماء وأشباه الرجال ذوى الحظوة من أن يستبدوا بأرواح عشرات الملايين من المسلمين وغيرهم في دولة الأتراك ، ويستأثروا بعظم أرزاقهم ، ويدوسوا رقابهم كما تشاء أهواؤهم الفاسدة ، وأوهموا الناس أن بلاط السلطان معقل الإسلام ولم يكن في الحق إلا ما خورا ترتكب فيه أشنع الفواحش ، وأوهوهم أن السلطان حامى الإسلام ، وخليفة النبي أو خليفة الله وظله على الأرض ولم يكن إلا تيسا تدلله أيدي هؤلاء الفاسقين كما يشتهون ، ولا يريد إلا ما يريدون في عزاته عن الرعية ، ولم يكن القائمون على شئون الدين إلا شراذم من أديعاء العلم ذوى العقول المتحجرة والضماير المتعفنة الذين لا يحسنون إلا تضخيم العاثم المقورة وإرخاء عذباتها المهفهفة وإسباغ الأقيية والجباب الطيالس الفضفاضة ، وإرسال اللحي حق الصدور وكان أعوانهم طوائف الدراويش في الشكايا والربط والزوايا وأكثرهم منحثون لا بالرجال ولا بالنساء ، وكل جهادهم في الدين هز الأرداف وإمالة الأعطاف على نقرات الدفوف ورنين الصنوج

ثم إرتداء المرقعات وإطالة القلائس وتزجيج الحواجب وكل العيون وكلهم من نفاية المجتمع التي لا تحسن من أمور الدين والدنيا إلا اللبس والتجسس والتطفل وإغراء الناس بالعبودية والفساد ، حتى إذا جاء الكماليون مزقوهم شرمزق : « وإذا أُرنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

وهذا الموقف المؤسف الشائن هو ما أدى إلى تصدع الكنائس في أوروبا منذ بدأت نهضتها الحديثة ، ومحاربة بعضها بعضا ، ومحاربة المستنيرين لها جميعا ، ثم الفصل الحاسم بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية ، وإجلاء سلطان الدين عن كل مرافق الدولة ومحاصرته في الكنائس والأديرة ، وكل ذلك أفسى وأبعد مما جرى في مصر ، فليعتبر بذلك الغافلون .

ومن أعجب العجب أن يكون الأمر مع الإسلام خاصة كذلك ، مع أن في صلب الإسلام — فضلا عن مناهج أتباعه الخالصين الأولين كالنبي وصحابته — طريقة تعديله وسد فجواته وتطويره لتغير الأزمان والبيئات ، والإسلام يتفرد بين الديانات بخصائص تجعله صالحا لمسيرة الأحداث ، واستحداث ما يناسبها من تقدم ، أو عدم الوقوف في سبيل التطور على الأقل ، وهذا ما يجعل موقف الناطقين باسمه عجيبا بل مُريباً حين يابون إلا الوقوف حيث وقف أسلافهم كأنما وقفت الكواكب عن الدوران ، أو تيار الحضارة عن الجريان .

للإسلام وحده خصائص تجعل موقف الناطقين باسمه هذا الموقف المؤسف عجيبا بل مريبا ، منها .

أولا : أنه أول دين أقر للإنسان بالكرامة لمجرد أنه إنسان مهما أجرم ، ومهما بلغ من تفاهة الشأن ، ففي القرآن : « ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . ومن أجل هذه الكرامة التي جعلها الله حقاً طبيعياً للإنسان - تحقق أن يكون خليفة في الأرض مع التسليم بما فيه من ضعف كما قدمنا ، فالإسلام يكرم الإنسان ويشق به .

ثانياً : أنه أول دين دعا إلى التوفيق بين مطالب الجسد ومطالب الروح ، أو مطالب الدنيا ومطالب الآخرة ، ولم يحاب أحد الجانبين دون الآخر ، ففي القرآن : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك » : وفي الأثر : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » وقد اعتبر الإسلام كل عمل دنيوي نافع لإنسان ولو كان لشخصه أو قريب له طاعة أو عملاً دينياً صالحاً يثيب الله عليه .

ثالثاً : أنه أول دين نظر إلى المجتمع البشري كوحدة ، أو بنية حية إذا اشتكى عضو منها تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، ومن أجل ذلك جعل كل إنسان في المجتمع راعياً ومسئولاً عن رعيته ولو كان خادماً ، ولم ينف من المسؤولية أحداً ، قال

النبي : « كلّم راع ومسئول عن رعيته ، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع في بيت سيده ومسئول عن رعيته ، فكلّم راع وكلّم مسئول عن رعيته » .

فليست المسئولية في الإسلام وقفا على فرد دون فرد ، ولا طبقة دون طبقة ، والخليفة والخادم سواء في مبدأ المسئولية ، وإن كان حظ هذا منها غير حظ ذلك ، لأن مناط المسئولية القدرة ، فكما زادت قدرة إنسان زاد نصيبه من المسئولية ، وكلما نقصت نقص ، فهو لم يجعل أنصبتهم سواء في المسئولية لتفاوتهم في القدرة ، فمن العدل أن يتفاوتوا تكليفا . وإذ لا مسئولية بلا حرية أطلق الإسلام الحرية لكل إنسان في عمله في حدود المصلحة البشرية ، وإن الحرية الصحيحة هي حق الإنسان في أداء واجبه كما يشاء على مسئوليته ، وهذه هي الحرية في الإسلام ، وكل إنسان يحاسب على قدر عمله إن خيراً وإن شراً : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . و « لا تزر وازرة وزر أخرى » . فلا يعنى الإسلام إنساناً من جرأثر تقصيره ولا يرفع إنساناً كائناً من كان عن المسئولية ولا يخفضه عنها إلا إذا كان قاصراً عن حملها .

وهو مثلاً مع اعترافه بالملكية - كما يجب وكما يتمشى مع الفطرة البشرية كعادته - قيد كل مالك بالتزامات جبال نفسه

وأسرته ومجتمعه ، فالمال مثلا حق الجميع وإن كان في حوزة فلان أو فلانة وفي القرآن : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما ، وفيه : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم » وتوعد الأمة جميعاً بالعقاب إذا لم تعرف المعروف وتسكر المنكر ففي القرآن إشارة إلى لعنة طائفة من بني إسرائيل « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » وفيه : « واتقوا فتنة لا تصيبن الدين ظلموا منكم خاصة » وقال النبي : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعذاب من عنده » وقال : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان » .

فالإسلام يرى أن الإنسان لا تتم سعادته حتى تتم سعادة المجتمع ولا يمكن أن يستريح بصلاحه والمجتمع من حوله فاسد . واستنكار المنكر بالقلب لا يجوز مع استطاعته باللسان ، واستنكاره باللسان لا يجوز وفي الطاقة تغييره باليد أى بكل ما يملك الإنسان من عدة وسلاح وافر قال النبي : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » فلا يجوز أن يعطى الإنسان الدنية في دينه ولا دنياه إلا أن يعجز عجزاً مطلقاً عن تغيير المنكر ويستغنى وسائله في مقاومته ، فإذا عجز لم يجز له السكوت والبقاء ، بل عليه أن يهاجر من موطنه إلى موطن خير منه ولا يعفيه من واجب الهجرة إلا العجز المطلق عنها فإذا لم يهاجر فقد حقت

عليه اللعنة وباء بإثم بقائه بين الفاسقين ، ففي النساء : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا ، ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما » وفيها : « ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا . الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا » فمن عجز عن الإصلاح في وطنه وعن الهجرة معا فسبيله الإنكار بالقلب على أن يكون قلبه مطمئنا بالإيمان ، وهذا أحط مراتب الإيمان ومراتب الروءة والكرامة ، وهذا وقوع في المحرم لا شفع فيه إلا الضرورة مثل أكل الميتة ، وكل أثر الضرورة رفع الإثم عن الواقع في الحرام « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » وليس من أثر الضرورة أن تجعل القبيح حسنا .

والأمة ملعونة جميعا إذا ظلم فيها إنسان حقا فلم تنصفه وهي قادرة على إنصافه ، أوجاع فيها أحد فلم تسد جوعته ، أو أصابته مصيبة تستطيع دفعها فلم تدفعها عنه وتهونها عليه ، ولا تقتصر اللعنة على الحكام ونحوهم من العلية دون العامة بل تشملهم جميعا وإن كان نصيب كل من الوزر على قدر نصيبه من القدرة على دفع البلاء واجتلاب المنفعة .

ورابعا : أن الإسلام دين عالمي بل هو أول دين عالمي ، وقد اعتبر المجتمع متعاوننا متكافلا في الشر والخير وقد جاء منذ جاء للبشر كافة على اختلاف شعوبهم وقبائلهم ومراتبهم وأزمنتهم وأمكنهم ، ففي القرآن : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » واعتبر الإسلام النبي محمداً خاتم النبيين ، والدين الذي يكون عالميا وخاتما للأديان يجب أن يكون صالحا للناس مهما اختلفوا وتبدلت بهم الأحوال والأزمان ، فلا يضيق بمجديد ولا يحجر عليه ما دام فيه مصلحة خاصة أو عامة أو لا يتعارض معها ، فالناس وبيئاتهم ، والناس وأزمنتهم ، والناس وعرفهم ، والناس وما يرونه خيراً لأنفسهم ما دام في ذلك صلاح الفطرة البشرية لأن الإسلام كما يرى نفسه هو دين الفطرة « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها » .

فهو قائم على الفطرة والفطرة ثابتة مابقي الإنسان إنسانا، فالإسلام إنما تعنيه صحة هذه الفطرة الباقية وسلامتها كيفما تبدلت الأحوال ،

فالفطرة هي الجذر الثابت الدائم وما عداها ففروع أو مظاهر مستمدة من هذا الجذر وقائمة عليه ولا عبرة مع بقاء الأصل بتغير الفروع واختلاف اتجاهاتها وأشكالها باختلاف الأحوال. ومن أجل ذلك لم يلزم الإسلام الناس بشيء إلا تصحيح هذه الفطرة والمحافظة على سلامتها ، وترك ما وراء ذلك للناس يرون فيه لأنفسهم ما يرون على مسئولياتهم كما جاء في الأثر « أنتم أعلم بأمر دينكم » وقد سن لهم في مطلعهم أموراً رأوها تحقق صلاح الفطرة وسلامتها في البيئة التي نجم فيها ، ولم يكن بد أن يسنها نقص التشريع والتقنين والعرف في الجاهلية عن إرضاء الفطرة ، وأقر في هذا السبيل ما أقر من آداب وعادات لم يجد فيها ما يهدد سلامة الفطرة في تلك البيئة ، ولم تكن هناك ضرورة لإنكارها ، أو كان إنكارها يعرض البناء الاجتماعي كله لزلزال يدمره تدميراً ، بينما هو يحتاج في إصلاحه إلى أسس مسلمة في تلك البيئة ليقرب الشقة بينها وبينه ، دون أن يوقع الدعر فيها حين يفاجئها بنظام جميع ما فيه غريب عنها كل الغرابة . وليس من شأن المصلح الحكيم أن يتعجل الإصلاح تعجلاً يفسد عليه أمره ، أو يضر بمن يحاول إصلاحهم ، ولا من شأنه أن يتهم على تغيير الأوضاع إلا في أضيق الحدود وبكل أناة وحذر ، وإلا أوقع الاضطراب بين الناس ، وأثار فيهم التحدى والعناد والوحشة والنفور ، وكان عامل هدم لا يبق ولا يندر. ذلك لأن الإصلاح مقيد بالطاقة البشرية .

والبشر ليسوا حجارة ترص كما يشاء المصلح ، ولا المصلح
أيًا كان شأنه إلهًا يقدر على خرق النواميس أو تعديلها ، أو يقول
للبشر : « كونوا » فيكونون .

خامساً : أن الإسلام أول دين دعا إلى تحكيم العقل واعتبره
الفيصل في مُشاكل الأمور ، وجاءت تعاليمه بحجة تدع للناس أن
يعملوا عقولهم لوضع التفاصيل التي تناسبهم ، حسب مصلحتهم
التي تختلف باختلاف عصورهم وبيئاتهم ، وهذه الخصيصة التي
انفرد بها الإسلام بين الأديان تسد كل فرجة وتستدرك كل قوت ،
لا سيما إذا لوحظ أن هذه الخصائص يتم بعضها بعضا ، ويمكن
بعضها لبعض ، وحسب الإسلام أن من مزاياه التي انفرد بها
نهوضه بالعقل ، وعدم وقوفه به عن العلم والفلسفة والاحتياط
لمعاش البشر ، ومسايرة الحضارة في تقدمها ، بل الإسلام يحض
على كل ذلك .

دعا الإسلام الناس إلى أن يتفكروا في أنفسهم وفي خلق
السموات والأرض وما بينهما وما عليهما مهما جل أو دق ،
وجعل العقل وسيلة إلى الإيمان لا مدادونه ، وهاديا إلى علامات
وجود الله وقدرته وحكمته وعنايته بالكون ، والثقة بفضله
والاطمئنان إليه ، وتبين مواضع العبرة في أنفسنا وكل ما يطيف بنا
من موجودات ، لذلك توجه في كل خطاب إلى العقل ، وامتحن عليه
بالعلم وقد كان أول ما نزل من القرآن « اقرأ باسم ربك الذي

خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » وتوات آيات القرآن تحض على الاحتكام إليه دون الأهواء ودون تقاليد الآباء ، ودون التواكل على مذاهب السادة والكبراء ، ففي القرآن : « قل هل يستوى الأعمى والبصير » وفيه « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب » وفيه « هو الذي جعل لكم الشمس ضياء ، والقمر نورا ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون » وفيه « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ، فقنا عذاب النار » وفيه « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » وفيه « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت » وفيه عن القرآن « إن هو إلا ذكر للعالمين » وفيه « وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يفتى الليل النهار إن في ذلك آيات لقوم يتفكرون ، وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ،

إن في ذلك آيات لقوم يعقلون » وهناك عشرات الآيات على هذا النحو تدعو العقل إلى النظر في عالم الطبيعة ، وكذلك هناك كثير من الآيات التي تدعوه إلى النظر في عالم النفس ، ففي القرآن « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » وفيه : « أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى » بل لم يكتف الإسلام بذلك بل دعا إلى النظر في عالم التاريخ وأطوار الاجتماع ، وأمر بالسياحة في الأرض لا للكسب فقط « فامشوا في منابكها وكلوا من رزقه » بل للتعلم والاعتبار ففي القرآن « قل سيروا في الأرض » وفيه : « أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » ونحو ذلك من الآيات التي تدعو إلى النظر في أحوال القرون الغابرة والأمم البائدة .

ومن فرائض الإسلام الحج ، وأهم مزاياه السياحة والتعارف والمذاكرة وتبادل النافع المادية والثقافية بين المسلمين ، ووقوف بعضهم على أحوال بعض ، وفي كل هذا تثقيف وحفز للعقل على النظر والمقارنة ، وإن التعلّم عن طريق السياحة والاتصال المباشر بما يراه علمه هو خير أنواع التعلّم ، وعليه يعتمد الأمراء والملوك وأشباههم من العلية فيفيدون من المعرفة في فترة مالا يفيدهم غيرهم في فترات على أن معرفتهم أصدق وأكثر إثارة وإحكاما للعقل ، وأعظم تكويننا للملكات العقلية .

ودعا إلى رحلة طائفة من كل فرقة إلى حيث يتفقهون ليكونوا
مصدر هداية لقومهم إذا عادوا إليهم : « وما كان المؤمنون لينفروا
كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ،
ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » .

وهذا النوع من التخصص في الدين كسائر أنواع التخصص
في شئون الدنيا من الحرف والصناعات كالحياكة والصباغة
والتطبيب والتعليم والزراعة مما لاغنى عنه للمجتمع .
ويجب هنا أن نشير إلى أمور لا نفر من ذكرها إحقاقاً للحق ،
وتصحيحاً لما قد يخطر على البال من أوهام في موقف الإسلام
من العقل حتى لا نكون محايين ولا مقصرين :

فأولها : أن الإسلام — كما تدل نصوص القرآن وأحاديث
النبي — إنما يستجيش العقل لغايتين : الأولى التماس أدلة الإيمان
والثانية العمل الصالح .

لم يدع الإسلام العقل لينطلق في النظر كما يشاء ، فيتمس أدلة
الشك وأدلة الإنكار والبراهين في جانب الإيمان والبراهين ضده ،
ولم يدع إلى التعقل لمحض النظر ، بل ليدبر الناس بالعقل أمورهم
المعاشية ويعتبروا بما وقع لغيرهم من الصالحين والظالمين .

وهذه الدعوة هي الدعوة الواجبة من ناحية التشريع البشري
العام ، وهي أيضا الدعوة التي لا ينبغي سواها للدين يحاول أن
يبني نظامه الإصلاحى على أساس الضمير في أعماق أغوار النفس

البشرية وحضره عن طريق الإيمان بالله لا النظر المجرد ، وعلى
أساس نشاطه الحيوي وإثارته لاستفراغ قواه في العمل الصالح
لا التردد والكسل .

أما ترك العقل طلقاً من كل قيد يثبت أو يشك أو ينكر
كما يشاء فقد يستساغ من العلماء والفلاسفة لأنهم يخاطبون طائفة
خاصة ويعالجون جانباً من المعرفة خاصاً ، ولكنه لا يستساغ من
الأنبياء ومن على شاكرهم من المصلحين الذين يخاطبون العلية
والدهاء ويعالجون حياة المجتمع من جميع نواحيها أو من جميع
أصولها النفسية والاجتماعية على الأقل .

وثانيهما : أن الإسلام — لالتزامه الفطرة البشرية — لم يحاول
تحيك العقل وحده ، ويجعله معتمده المفرد في الإصلاح ، بل
حاول استجاشة كل بواعث الإيمان والعمل في السرائر الإنسانية
نخاطب العواطف السكرية والأخلاق السامية ، واستعان بكل
ما في المجتمع من طيب العادات والتقاليد والقصص والأمثال
المعروفة التي فيها عبرة للناس ما دامت تهدي إلى الخير وتحث على
الصالح ، أو تبعد عن الشر وتنفر من الفساد ، واعتمد كثيراً
على التبشير والانذار ، فالترغيب والترهيب من أساليب الدعوة
لأن البشر ليسوا جميعاً بملائكة ولا بشياطين ، وليسوا جميعاً
علية ولا دهاء ، والإنسان ليس على حالة واحدة في يومه فضلاً

عن عمره ، والقرآن يفسر ذلك أوضح تفسير « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .
من أجل ذلك عرض الأمثال الطيبة من الأنبياء وغيرهم من الأبرار السابقين وتولاهم جميعاً ، وسمى بعضهم « مسلمين » وعدهم أبطال هداية ، ليعتبر بهم الناس فيدعوا للدعوة ، ولم يعرضهم كما تعرضهم كتب التاريخ بذكر حقائقهم التاريخية وما لهم وما عليهم على السواء ، وما كان ينبغي للدعوة هداية إلا أن تكون حاسمة وإلا أن تقتصر على ذكر الجوانب التي تغرى بالهداية دون أن تذكر المآخذ التي تغض من قدر الأمثلة قليلاً أو كثيراً ، لأنها قد تغرى بالفتور والكسل في وقت يجب فيه العزم والحزم ، وما كان للانسان مصلحاً أو مؤرخاً أو عالماً أو غير ذلك إلا أن ينظر إلى الشيء من الزاوية التي تعنيه وتوضح فكرته ، دون الإحاطة بكل الأطراف . وهكذا عرض الاسلام النماذج السيئة أيضاً لتنفير الناس من الاقتداء بها . وإن كل ما يعنى الإسلام في الأمثلة الحسنة والسيئة التي عرض لها هو العبرة للعمل ، أما ما وراء ذلك فقد يعنى غيره ممن لهم أغراض غير غرضه ، ولكنه لا يعنيه هو لأنه ليس من غرضه .

تولى الإسلام الأنبياء السابقين جميعاً وكتبهم ودياناتهم ، ففي القرآن مثلاً « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله »

وكذلك تولى غير الأنبياء من الفريسيين والتلمذات كلقمان
والرجل الصالح صاحب موسى ومريم وحواربي المسيح كما تدل
نصوص القرآن، وتولى المتدينين جميعاً على اختلاف أديانهم ماداموا
يؤمنون بالله واليوم الآخر ويعملون صالحاً في البقرة: « إن
الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله
واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف
عليهم ولا هم يحزنون » وكتب النبي إلى عامل له في اليمن « من
كان على يهوديته أو نصرانيتها فلا يفتن عنها » .

وتقد جاهد الإسلام ليؤكد أنه دين محافظ ، وأنه ليس ثائراً
على الأديان ولا مكذبا بها ولا ناقضاً لها ، فقرر أن الإنجيل
مصدق للتوراة ، وأن القرآن مصدق للتوراة والإنجيل وأنه
« دين إبراهيم » بل دين نوح وسائر الأنبياء « شرع لكم من
الدين ما وصى به نوحاً » ، ومن توكيده لدعواه في المحافظة أنه احتكم
مع المختلفين معه من اليهود إلى التوراة ، ومن النصارى إلى
الإنجيل ، وبين أن المخالفين له إنما يتبعون أهواءهم ، ويخالفون
توراتهم وإنجيلهم ويحرفون الكلم فيهما عن مواضعه بتأويلاتهم
المعرضة ، وإلا فلا على من شاء منهم أن يحتكم إلى التوراة والإنجيل .
وفي المسألة في شأن موسى وقومه : « وقفينا على آثارهم
بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه
الإنجيل فيه هدى ونور ، ومصدقاً لما بين يديه من التوراة

وهدى وموعظة للمتقين ، وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ،
ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » ،
وفي السائدة « ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا
عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ، ولو أنهم أقاموا التوراة
والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت
أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون » وفيها « قل
يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل » .
وفي التوبة تعليل لبعض أسباب السخط عليهم : « اتخذوا
أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله واليسع ابن مريم
وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو » .
وفي الجمعة مثل ذلك « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها
كمثل الحمار يحمل أسفارا » .

وأنكر ادعاء اليهود من عند أنفسهم الاستئثار بولاية الله دون
غيرهم مع أن الله مولى الناس جميعا ، ففي الجمعة « قل يا أيها الذين
هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم
صادقين ، ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » .
ومن أسباب سخطه عليهم تزييفهم الشريعة عمداً مع سوء
النية بالوضع أو التأويل أو الكتمان ، ففي البقرة « فويل للذين
يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا
به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » .

وفي آل عمران : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب
لَتُبَيِّنَنَّاهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ .
وفي النساء « من الذين هادوا يجرفون السكك عن مواضعه
ويقولون سمعنا وعصينا وسمع غير مسمع ، وراعنا (١) ايّانا بالسكك
وطاعنا في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا وسمع وانظرنا لكان
خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً ،
بأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم .
وفي المائدة : « وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم
الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ، إنا أنزلنا
النوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين
هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا
عليه شهداء . »

وقد نعى عليهم توليهم الوثنيين من أهل مكة حين سألوهم
ديننا خير أم دين محمد ، ففضل اليهود دين المكين الوثني على الإسلام
مخالفين بذلك دينهم وهو كالإسلام يوجب عبادة الله وحده .

(١) للكامة « راعنا » مصدران : الرعاية والرعونة ، فني قول
اليهود للنبي « راعنا » تورية ، ومعناها القريب في العبرية والعربية
« انظرنا » من الرعاية ، وهم لا يريدون ذلك ، وإنما البعيد « أرعن »
من الرعونة وهي الغايش والحمق ، وهو ما يقصدون للسخرية من النبي ،
ولكي يزول اللبس عنهم القرآن عن استعمالها فقال « لا تقولوا : راعنا ،
وقولوا : انظرنا » :

فالإسلام محافظ لا ثائر ، وغضبه على اليهود وغيرهم لشورتهم على شرائعهم وكتبهم هم ، فهو يدعوهم إلى المحافظة عليها بإظهارها كما هي وفهمها كما يجب ، ولا يدعوهم للثورة عليها ، فالإسلام محافظ في صميمه ولا يشور إلا على الثائرين .

وثالثها : أن الإسلام — لالتزامه الفطرة ، وتحكيمه العقل ، مع استعانته بكل ما في البرائر والبنية الإنسانية من بواعث الإيمان والنشاط العملي — لم يعتمد في الدعوة إلى اعتناقه على المعجزات ، ولم تكن له إليها حاجة من أجل ذلك ، وسار في أصوله وفروعه وأساليبه وفق العروف المألوف من مواضع الاجتماع البشرية فيما يأخذ وفيما يدع ، فلا تلبس هناك ولا تهويل ولا اغز ولا سر ، والنبي نفسه لم يدع لنفسه امتيازاً إلا الوحي ، ولم يعتمد في دعوته على خرق سنة نفسية ولا سنة اجتماعية ولا سنة طبيعية ، بل اتخذ السنن الكونية سننه ، واعتمد عليها ، وبها وحدها أفلح وبغيرها لم يفلح ولم يدع فلاحاً ، بل وقف من المعجزات موقف اليأس من فلاحها في هداية البشر إلى الإيمان ، وبلغ من ذلك أسمى مما بلغه الإنجيل الذي سار شوطاً بعيداً في هذا الطريق ، وهذا ما لا يتسع المجال هنا للافاضة فيه .

وحسبنا أن نشير إلى أن الإسلام — لجريه على المألوف المعقول من أمور البشر — أكد وكرر التوكيد بأن الهداية والضلال من الله ، وأنهما قائمان على استعداد السرائر لهما ، وأنهما من مراحل

نضوج النفس البشرية ، وأن غير المستعد للهداية لن تفلح الآيات في هدايته ، والمستعد لها يكفي أن توضح له طرقها ليتهدى من غير حاجة إلى أى آية . وأن الآيات الحقيقية في نظر القرآن وفي نظر العقل المستقيم هي نواميس الوجود الطبيعية والنفسية والاجتماعية ونحوها ، ومنها وحدها تستمد مسوغات الإيمان ودواعيه . وفي هذه النواميس وما يصاحبها من الإعجاز أضعاف أضعاف ما يتوقع طلاب الآيات من ذوى الأذهان الأسطورية ، وما من حركة ولا سكونة في الوجود إلا هي معجزة في نظر ذوى البصائر الملهمة وهم وخدم المعول عليهم لاستعدادهم اللدني والكسبي لإدراكها .

ونصوص القرآن ودخول الناس في الإسلام تؤيد ما وضحته هنا كل التأييد ، وترفع كرامة الإنسان وبصيرته وعقله عما لا يليق به من عبث ، فأساس تغيير الأحوال هو الاستعداد النفسى والاجتماعى ، ففي الأنفال : « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وفي الرعد « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وإن مصدر الهداية والضلال هو الاستعداد وهو من الله ، والاستعداد والقدرة مناط التكليف والإيمان ، وكل إنسان واستعداده ، وكل إنسان وعمله وهو مأخوذ به ، ففي الطلاق : « لا يكلف الله نفساً إلا ما أتاها » وفي الإسراء : « من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا

معذبين حتى تبعث رسولا ، وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » وفيها « قل كل يعمل على شاكلته » وفي يونس « إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون » وفي هود : « أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » ونحو ذلك من عشرات النصوص المنثورة في سور مختلفة . والآيات لا تغني شيئا مع العمى والعناد ما دام الله لم يعد الإنسان للهداية ففي الأعراف : « من يضل الله فلا هادي له وينذرهم في طغيانهم يعمهون » وفيها : « وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون » . ومما يؤيد عجز الآيات عن الهداية : « قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » و « قالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين » وفي الأنعام : « وما تأتيتهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » وفيها : « ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها » .

وإن مجرد طلب إنسان من نبي آية على نبوته لسداجة صبيانية ، ودليل جهله المطبق بمعنى النبوة والآية معاً ، فالنبي داعي صلاح ومبعث نهضة روحية ، فحسبه أن يكون كفواً بشخصيته للصلاح

والإنهاض ، محلا ثقة الناس بأمانته وصدقته وكفايته ، مفطوراً على الزعامة الأبوية بقوته ورفقه وجاذبيته ، وأن يكون صاحب دعوة صالحة ملائمة لمن ينهض بينهم عارفاً بعصره وجيله ، واعياً لطاقة من حوله وحاجاتهم وآمالهم ، مؤمناً متمسكاً بما يدعو إليه في سلوكه ، شجاعاً في الحق كما يراه ، لا يبالي في سبيل دعوته بلاء ، وهو بذلك يكون قادراً على أن يجذب حوله أهل الأريحية والمستعدين للصالح . ولا صلة بين دعوة النبي والآيات المنتظرة كأن يكون له كنز أو يؤيده ملك أو تكون له جنة يأكل منها . فمن طلب المعجزات الصحيحة فأمام عقله في كل لحظة ملايين المعجزات . وبعد فهذه حجج ناهضة على اتساع أفق الإسلام لأطوار الاجتماع واستعداده للتدرج مع درجات الحضارة ، وأنه لا يعيا بما يحمله ، وأن من يحتكرون التحدث بلسانه هم الذين يصدون عن سبيله ، وأن هذا الاحتكار أمر يأباه الإسلام نفسه ، وأن ما يزعمونه ديناً هو مجموعة تعاليد رثة تراكت على جوهري الدين خلال عصور الانحطاط الماضية كما يتراكم الصداً لأسباب يطول شرحها ، وأن الحجر على عقول الناس وحرمانهم الطبيعية والاجتماعية وتمكين بعضهم من رقاب بعض باسم الدين من أخس ما يبطل به الدين والناس من نكبات ، وأن الدين للناس جميعاً ، وأنه إنما جاء لمصلحتهم ، وأن مناطه وسنده هذه المصاحبة ، وأنه قائم على الفطرة فما أصلحها فهو منه وما أفسدها فليس منه ، وأن

الدين ليس بيده سيف يقيم به نفسه بل يقيم قواعده البشر. وهم إن صلحوا صلح لهم ، وإن فسدوا أفسدوه ، وأن الأخلاق من وراء الدين ، والعبرة بها لا به ، وأنه صورة لها ، فإذا أعانتها من وراءه أقامتة وإذا تخلفت عنه عجز عن القيام ، وأن المعول عليه هو المتدينون لا الدين ، لأن الدين يتشكل عند كل إنسان حسب شخصيته ، والأديان تسعد وتشقى بأهلها ، وعلينا أن نعلم — ونحن ندعو إلى اتخاذ القرآن والسنة دستورنا — أن المعول عليه في الحكم هو المنفذ للقوانين لا القانون نفسه ، وأن الحكام الصالحين يفسدون إذا ضعفت رقابة المجتمع أو كانت أخلاقه فاسدة ، فهذه إنجلترا يسيرها دستور وضعى غير مكتوب وإن حال شعبها خير ألف مرة من حال شعب فى الشرق يدعى رجاله أن دستورهم القرآن والشعب لا يجد عيش الكلاب ، وإن يزيد بن معاوية مثلاً حين قتل زبائنه الحسين ابن بنت رسول الله وأوطئوا الخيل صدره وجزوا رأسه وطافوا بها فى الآفاق فى فجر الإسلام تحت أعين كثير من صحابة النبي وأبنائهم — لم يكن دستوره إلا القرآن لا قانوناً من وضع بشر ، وكان يعتقد أن الحسين يستحق القتل وأنه كما قال « أتى من فقهه » ولنعلم أننا لن نستطيع تطبيق القرآن حتى نكون أهلاً له ، فإذا لم نبلغ هذه المرحلة من النضوج فلن نكون أهلاً لاتخاذ القرآن دستوراً وإلا كذبنا الله ورسوله ، إذ ليست للقرآن يد تبسط بالفاسقين وإنما الرجال هم الذين يردون المعتدين عن العدوان.

أما بعد فهذا نذير للناس أجمعين ، فلا بد من رسالة ترضى حاجة العالم في اتجاه شعوبه نحو الاتحاد ، وحاجة البشرية في اتجاهها نحو الكرامة الإنسانية والحرية الفردية إلى جانب تحقيق العدالة الاجتماعية في كل أمور المعيشة ، فإذا لم تحقق الدعوات القائمة هذه الغاية لم يكن بد من ظهور دعوة جديدة ترضى « العالمية ، وتفسرها وتحفظها ، ولن يكون مصدرها إلا الضمير البشري في طوره الجديد ، وعمادها الثقة بالإنسانية ، وستكون « صوت الإنسان في الأرض » وستكون لها أمثيها ومجازاتها المناسبة الآن ، لأن البشرية لا تستغنى عنها بحكم الفطرة وإن اختلفت صورها والمستقبل يتمخض عن طور بشري « عالمي » لا بد له من دستور عالمي . ولن يصلح لذلك بين الرسالات القديمة إلا الإسلام القرآني . وعلى الذين ينعمون فوق الأطلال الحربة مغترين بأساطيرهم منذرين بقرب القيامة أن يعلموا أن بيننا وبين القيامة كما يتصورونها ربوات القرون « وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » نعم هناك قيامة تقرب مسرعة منا ، ولكنها قيامة من عالم الحياة لا من عالم الموت ، وهي طراز لا عهد للبشرية بمثله إذ لا عهد لها بطورها « العالمي » الحاضر ، ولن ينجو في هذه القيامة إلا التائبون لأزماتها بالإيمان والعمل الصالح : « والعصر ، إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »

محمد فليحة التونسي
كوبن القبة
محمد السحيل والنواصي

المخطر اليهودي بروتوكولات حكماء صهيون

أول ترجمة عربية أمينة كاملة

بقلم

محمد خليف النورسي

كتاب يتضمن السجلات التي كتبها حكماء اليهود ، وقرروا فيها الوسائل والأهداف الجهنمية لدؤامرة السرية العالمية كي يستبد اليهود بحكم العالم وخيراته .

في يولييه سنة ٥١ أي قبل ظهور الترجمة العربية بشهرين دفعت الحكومة المصرية خمسمائة جنيه ثمن نسخة بالإنجليزية . وقد نشرت مجلة « روزا اليوسف » هذا الخبر في العدد ١١١٢ في ٥/٨/٢ بعنوان « أخطر كتاب في العالم » ثم قالت : « ولعل هذه النسخة هي الوحيدة في

الشرق وإحدى ثلاث نسخ في العالم كله » .

وتمتاز الترجمة العربية بمقدمة في ٤٨ صفحة وتعليقات كثيرة موضحة مكالة .

يطلب من مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثني ببغداد



شارع ناروق خانف ٢١ - القاهرة

٥٠٩٣٨ ت